
آرثر ماكين
المحتالون
الثلاثة
رواية

رواية

المحتالون الثلاثة

آرثر ماكين

ترجمة

فريق عمل بوملحه للنشر



عنوان الكتاب:
المحتالون الثلاثة
اسم المؤلف:

آرثر ماكين
اسم المترجم:
فريق عمل بوكله للنشر
التصنيف العمري:
E
الترقيم الدولي:
ISBN 978-9948-713-00-5
رقم إذن الطباعة:
MC-02-01-9914248

المقدمة

سأل الرجل الحليق الناعم رفيقه الذي لا يتمتع بمظهر جذاب للغاية، واختار أن يدمج شاربه ذا اللون الأحمر الزنجبيلي مع خطين صغيرين في ذقنه: "هل سيبقى السيد جوزيف والترز طوال الليل؟".

وقفا عند باب القاعة، يبتسمان لبعضهما بابتسامة شريرة، نزلت فتاة من الدرج وانضمت إليهما، شابة صغيرة، وجهها غريب وجذاب أكثر من كونه جميلاً، عيناها بلون البندق اللامع، تحمل في إحدى يديها طرداً ورقياً أنيقاً، ضحكت مع أصدقائها، وعندما كانا على وشك الخروج قال الرجل الناعم للآخر: "اترك الباب مفتوحاً قليلاً، قد يرغب في رؤية بعض الأصدقاء، كما تعلم".

نظر الآخر حوله متشككاً، توقف ويده على مقبض الباب المتهالك: "أتعتقد أن هذا تصرف حكيم يا ديفيز؟ لن يحب ليبسيوس ذلك. ما رأيك يا هيلين؟".

"أتفق مع ديفيز، فهو فنان، وأنت مجرد شخص عادي يا ريتشموند وجبان قليلاً، دع الباب مفتوحاً، ولكنه أمر مؤسف، سيضطر ليبسيوس للرحيل! كان ليستمتع لو كان موجوداً".

خرج الثلاثة تاركين خلفهم باب القاعة نصف المفتوح يتشقق من الصقيع والبلل، وقفوا صامتين تحت الشرفة التي أصابها دمار جزئي، وقالت الفتاة: "حسناً، أخيراً تم الأمر، لن أسرع بعد الآن في تتبع الشاب الذي يرتدي النظارات".

قال السيد ديفيز بأدب: "نحن مدينون لك بالكثير؛ وقال الطبيب ذلك قبل مغادرته، ولكن هل حان الوقت لوداع بعضنا؟ سأودعكم هنا، أمام هذا المنزل الخلاب رغم تعفنه"، ثم رفع قبعته وانحنى: "لصديقي السيد بيرتون، تاجر التحف والأشياء الغريبة".

وقال ريتشموند: "وأنا أودع السيد ويلكنز، السكرتير الخاص، الذي اعترف أن شركته أصبحت مملة بعض الشيء".

وقالت الفتاة بلباقة مغرية: "وداعاً للسيدة لالي، وللسيدة ليستر أيضاً، وداعاً لكل المغامرات الخفية؛ فالمهزلة انتهت".

بدا السيد ديفيز والسيدة مستمتعين للغاية، وكان ريتشموند يشد شاربه بعصبية، وقال: "أشعر ببعض الاضطراب، لقد رأيت أشياء أكثر صعوبة في الولايات المتحدة، لكن صوت بكائه جعلني أشعر بالغثيان، والرائحة.... معدتي لم تحتملها".

ابتعد الأصدقاء الثلاثة عن الباب، يذرعون الطريق الحصوية المغطاة بالطحالب الرطبة ذهاباً وإياباً، كان مساء خريفياً جميلاً، أشعة الشمس الغاربة تضرب الجدران الصفراء للمنزل القديم المهجور، بانت بقع العفن، من آثار المياه السوداء التي هطلت من الأنابيب المكسورة، وبقع أخرى كشفت الطوب العاري، وفتحات ظهر من خلفها اللون الأخضر لشجيرة اللبورنوم الهزيلة التي بجوار الشرفة، وبانت الأساسات المهترئة في الأرض حيث تراكم الطين المتعفن.

المكان قديم وغريب، ربما يبلغ عمره مائتي عام، هناك نوافذ ناتئة تنحدر من السقف المغطى بالقرميد، وعلى كل جانب جناح على الطراز الجورجي، والنوافذ المقوسة امتدت إلى الطابق الأول، وهناك قبتان، كانتا ذات يوم مطليتين باللون الأخضر الزاهي، وأصبحتا رماديتين. جرار مكسورة ملقاة على الطريق، ضباب كثيف يتصاعد من الطين، الشجيرات مهملة، نمت متشابكة بعشوائيّة، تفوح منها رائحة كريهة وشريرة، الجو في القصر المهجور وكأنه قبر!

حزن الأصدقاء الثلاثة وهم يشاهدون الأعشاب الخشنة ونباتات القراص التي نمت بكثافة فوق العشب وأحواض الزهور، ولبركة المياه الحزينة الـتي علاها زبد أخضر وزيتي بدل الزنابق، ووقف تمثال صدء لترايتون[1] على الصخور، يصدر ترنيمة رثاء من محارة مكسور، انزلقت الشمس من خلف السياج والمروج البعيدة، مرسلة أشعتها الحمراء من خلال أشجار الدردار. ارتجف ريتشموند وضرب الأرض بقدمه، وقال: "من الأفضل أن نرحل قريباً، فلا يوجد شيء آخر يمكننا فعله هنا".

رد ديفيز: "لا، انتهى الأمر أخيراً، راودني الشك أحياناً بأننا لن نتمكن من الإمساك بالرجل صاحب النظارة، كان ذكياً، ولكنه تحطم في النهاية، بدا شاحباً عندما لمست ذراعه في الحانة، السؤال المهم، أين أخفى الشيء؟ يمكننا أن نقسم أنه لم يكن معه".

ضحكت الفتاة واستداروا بعيداً، ارتجف ريتشموند بقوة، صاح وهو يستدير نحو الفتاة: "آه! ماذا لديكِ هنا؟ انظر يا ديفيز، شيء يسيل من الطرد".

ألقت الشابة نظرة سريعة على الطرد الصغير الذي تحمله، ثم فتحت جزءاً منه، وقالت: "نعم، انظرا لبعضكما، اعتقدت أنها ستكون جيدة في متحف الطبيب؟ إنها يده اليمنى، اليد التي أخذت تمثال طبريا الذهبي".

أومأ السيد ديفيز برأسه موافقاً، ورفع ريتشموند قبعته القبيحة ذات التاج المرتفع ومسح جبهته بمنديل قذر، ثم قال: "أنا ذاهب، يمكنكما البقاء إذا أردتما".

تجاوزوا الإسطبل وحديقة المطبخ القديمة، قفزوا فوق السياج، قاصدين نقطة معينة في الطريق.

بعد حوالي خمس دقائق اقترب رجلان من القصر، قادهما الكسل لاستكشاف هذه الضواحي المنسية في لندن، يسيران في ممر العربات المظلم، لمحوا القصر المهجور، وأدركوا مدى الخراب الذي حل به، وتبادلوا إلقاء المواعظ بينهم مع اقتباسات كثيرة من جيرمي تايلور[2]، وما إن اقتربا من المكان حتى صاح أحدهما: "انظر يا دايسون إلى النوافذ العلوية، وكأنها جديدة رغم أن الشمس تغرب والزجاج مغبر".

"الإطار المتسخ للنافذة يلمع، شيء غير متوقع في مكان قديم".

أجاب الأكبر سناً والأكثر فخامة: "فيليبس، أنا أستسلم للخيال وأضعف إلى جانبه، لا أستطيع تحمل تأثير الغرابة هنا، كل شيء حولنا ينهار ويتلاشى، ونحن نسير في الظلام، في ظل أشجار أرز كئيبة، والهواء يتعفن في رئتينا، لا أستطيع البقاء هادئاً، انظر إلى ذلك الوهج العميق على الألواح الزجاجية، والمنزل يبدو مسحوراً، وتلك الغرفة، أؤكد لك أنها مليئة بالدماء والنار".

مغامرة تمثال طبريا الذهبي

تعرف السيد دايسون بالسيد تشارلز فيليبس صدفة، كتلك المصادفات العديدة التي تقع كل يوم في شوارع لندن. كان السيد دايسون رجلاً من أهل الأدب، ومثالاً مؤسفاً للمواهب التي أسيء استخدامها، التي ربما كانت لتضعه في أوج شبابه بين أفضل الروائيين، ولكنه اختار طريق الانحراف، كان على دراية بالمنطق المدرسي، لكنه لم يكن يعرف شيئاً عن منطق الحياة، يمدح نفسه بلقب "الفنان"، بينما هو في الواقع مجرد عاطل كسول يسرق جهود الآخرين، ومن بين العديد من الأوهام التي يعيشها فإنه يعتز بوهم واحد، وهو أنه عامل مجتهد، يدخل المتجر الذي يفضله – متجر صغير للتبغ في شارع جريت كوين– وهو يدعي الإرهاق الشديد، ويخبر أي شخص يحادثه أنه شهد شروق وغروب شمسين متتاليتين.

صاحب المتجر رجل في منتصف العمر، يتمتع بأدبٍ فريد، يتسامح مع دايسون لطيبته، ولأنه زبون دائم، ويسمح له بالجلوس على برميل فارغ ليعبر عن آرائه الأدبية والفنية حتى يتعب أو يحين وقت الإغلاق، وإذا لم ينجح في جذب زبائن جدد، فلا يعتقد أنّ أحدهم من القدامى لن يعود إلى المتجر بسبب أحاديث دايسون وبلاغته. أدمن دايسون تجربة وصفات وتركيبات جديدة للتبغ ولم يضجر من ذلك أبداً. دخل المتجر في إحدى الأمسيات وهو يمزح، دخل خلفه شاب في مثل عمره تقريباً وطلب من صاحب المتجر أن يكون طلب دايسون على حسابه، قال ذلك بأدب وابتسامة، فشعر دايسون بالغبطة من إطرائه، وما لبث أن بدأ الاثنان يتحدثان، وبعد ساعة رآهما بائع التبغ وهما يجلسان على برميلين ويتكلمان، وقال دايسون: "سيدي العزيز، سأعطيك مهمة الأديب في جملة واحدة، وعليه أن يفعل ذلك ببساطة: أن يخترع قصة رائعة، وأن يرويها بطريقة رائعة".

فرد السيد فيليبس: "سأمنحك هذا، ولكني أصر أن يد الفنان الحقيقي من تجعل جميع القصص رائعة، وكل حدث يحمل في طياته سحر وعجائب خاصة، الموضوع ولو كان بسيطاً أو عادياً فإنه غير مهم، فالأسلوب هو كل شيء، وأعلى درجات المهارة تظهر حين أخذ مادة تبدو عادية وتحويلها من خلال كيمياء الأسلوب إلى فن من ذهب خالص".

"إن هذا في الواقع يدل على مهارة عظيمة، ولكنها تُمارس بتهور أو بدون قصد، الأمر أشبه بعازف كمان عظيم يُظهر لنا مدى روعة التناغم الذي يستطيع استخلاصه من عودٍ يملكه طفل".

"لا، أنت مخطئ، وتتبنى وجهة نظر خطأ تماماً عن الحياة، علينا أن ندرس هذا الأمر، تعالَ إلى غرفتي؛ فأنا أعيش على مقربة من هنا".

وهكذا أصبح السيد دايسون شريكاً للسيد تشارلز فيليبس، الذي كان يعيش في ساحة هادئة ليست بعيدة عن هولبورن، ومنذ ذلك الحين أصبحا يترددان على غرف بعضهما، وأحياناً يلتقيان في متجر التبغ الواقع في شارع كوين، وكان بائع التبغ أحياناً يسلب منهما متعة نقاشاتهما حول الأدب والفن، وكانت هناك خلافات مستمرة بينهم، يشيد دايسون بالخيال الخاص في الأدب، ويصر فيليبس – الذي كان طالباً في العلوم الطبيعية وعالماً في الأعراق– على وجوب وجود أساس علمي للأدب. وبسبب ميراث تركه لهما أقاربهما، لم يكن أي منهما يعاني من الفقر، فكانا يعيشان حياة مريحة ويستمتعان ببوهيمية تعمل على حرية الإبداع دون قلق.

في إحدى ليالي شهر يونيو، كان السيد فيليبس في غرفته في ساحة ريد ليون الهادئة، فتح النافذة، يدخن ويراقب الحركة في الأسفل، السماء صافية، ضوء غروب الشمس طغى عليها، والشفق متوهج بعد غروب الشمس، يلوّن الأفق بضوء دافئ، ينافس مصابيح الغاز في الميدان، ما خلق تبايناً بين الظل والنور، بدا وكأنه من عالم آخر. الأطفال على الرصيف يركضون ذهاباً وإياباً، المتسكعون أمام الحانة، والعابرون يتأرجحون وكأنهم يتراقصون في أضواء الشفق الخافتة بدلاً أن يظهروا كأشياء ملموسة، ومن حين لآخر يظهر أحد الأشخاص أمام ستارة ثم يختفي، وفي ظل هذا السحر شبه المسرحي يعلو عزف نغمات أوبرا إيطالية شجية من بيانو، بدت مناسبة للمشهد، ولم يتوقف الصوت الجهوري العميق لحركة المرور في هولبورن. استمتع فيليبس بالمشهد وتأثيراته؛ تلاشى الضوء في السماء وتحول إلى ظلام، وساد الصمت الساحة تدريجياً، وظل جالساً

عند النافذة يحلم، أيقظه صوت جرس المنزل الحاد، نظر إلى ساعته، الوقت تجاوز العاشرة، ثم سمع طرقاً على الباب، فدخل صديقه السيد دايسون، كعادته جلس على كرسي وبدأ يدخن في صمت، ثم قال: "أنت تعلم يا فيليبس، لطالما دافعت عن الروائع والخوارق، وأنت تجلس على هذا الكرسي تجادلني، تقول بأنه لا ينبغي للمرء أن يستخدم العجائب، أو الأحداث غير المحتملة، أو الصدف الغريبة في الأدب، وتزعم أنه من الخطأ أن نفعل ذلك، لأن الغرائبية والأشياء غير المحتملة لا تحدث في الواقع، وأن حياة الناس لا تتشكل بالمصادفات الغريبة. الآن، ولو كان ما تقوله صحيحاً لن أوافق عليه، لأنني أعتقد أن نظرية (نقد الحياة) هراء بحت، أنكر فرضيتك، ولكن حدث لي شيء غريب للغاية الليلة".

"أحقاً ما تقوله يا دايسون؟ أنا سعيد لسماع ذلك. بالطبع أعارض حجتك أياً كانت؛ ولكن إذا تكرمت وأخبرتني بمغامرتك، فسأكون سعيد للغاية".

"حسناً، حدث الأمر على هذا النحو، كان لدي يوم عمل شاق، ولم أتحرك من مكتبي منذ السابعة من مساء أمس، كنت أرغب في تطوير الفكرة التي ناقشناها الثلاثاء الماضي عن عبادة الأوثان".

"أتذكر ذلك، وهل تمكنت من التوصل لشيء؟".

"نعم، سارت الأمور بشكل أفضل مما توقعت، ولكن كانت هناك صعوبات كبيرة، المعاناة المعتادة بين الفكرة وتنفيذها، على أية حال، انتهيت في حوالي الساعة السابعة من مساء اليوم، ورغبت في تنفس الهواء النقي، خرجت أتجول في الشوارع بلا هدف؛ عقلي مشغول بحكايتي، ولم أشعر بنفسي وأنا أمشي، فوجدت نفسي في تلك الأماكن الهادئة شمال شارع أكسفورد في اتجاه الغرب، حي سكني أنيق مليء بالجص والرفاهية، عدت شرقاً دون أن أشعر، حل الظلام عندما مررت بشارع جانبي صغير كئيب، ضعيف الإضاءة وخالٍ من الناس. لم أعرف وقتها مكاني، واكتشفت بعد ذلك أني قريب من طريق توتنهام كورت، تجولت بلا هدف، مستمتعاً بالهدوء؛ على أحد الجانبين بدا مبنى وكأنه الجزء الخلفي لمتجر كبير، نوافذ متراصة مغبرة تمتد نحو السماء، مع أجهزة مثل المشانق لرفع البضائع الثقيلة. في الأسفل أبواب كبيرة مظلمة، مهجورة ومغلقة بإحكام، بعدها مستودع ضخم؛ وعلى الجانب الآخر جدار فارغ قاتم كجدار سجن، ثم مقر أحد أفواج المتطوعين، وبعد ذلك ممر يؤدي إلى ساحة كانت فيها عربات واقفة للإيجار، شارع خالٍ من السكان، وبالكاد يظهر بصيص ضوء من نافذة. تساءلت عن هذا الهدوء الغريب والظلام، حيث أنه قريب من أحد الشرايين الرئيسية الصاخبة لحياة لندن.

سمعت فجأة صوت أقدام تركض بسرعة على الرصيف، ومن ممر ضيق، ربما ممر خلفي أو شيء من هذا القبيل، خرج رجل كما لو كان قُذف من مقلاع أمام أنفي مباشرة، اندفع بجانبي، ألقى شيئاً بعيداً أثناء ركضه، اختفى في لحظة في شارع آخر، وقبل أن أدرك ما حدث كنت أشاهد شيئاً آخر. شاهدت ما بدا وكأنه خط من اللهب يلمع في الهواء، يطير مهتزاً فوق الرصيف، لم أستطع إلا أن أركض خلفه، خفت حدة الزخم، ورأيت شيئاً مثل نصف بنس لامع يتدحرج ببطء شديد، انحرف نحو الميزاب، حام للحظة على الحافة، ثم سقط في المصرف، أعتقد أني صرخت يائساً، رغم أني لم أعرف ما الذي كنت أطارده؛ ثم فرحت، استقر بشكل مسطح على قضيبين ولم يسقط في المجاري، انحنيت، التقطته، وضعته في جيبي، هممت بالسير فعاد صوت الخطوات المسرعة، ولا أعرف ما الذي جعلني أختبئ، وقفت في الظل قدر ما أمكني، مر رجل مسرعاً قريباً مني، وشعرت بسعادة غامرة لاختبائي، لم أميز ملامحه، لكني رأيت عينيه تلمعان وأسنانه ظاهرة، ويحمل سكيناً مرعباً في يده، أعتقد أن الأمور ستكون سيئة للرجل الأول إذا تمكن الرجل الثاني – سواء كان لصاً أو سارقاً أو أي شيء آخر– من الإمساك به. أستطيع أن أخبرك يا فيليبس، أن مطاردة الثعالب مثيرة، عندما يُنفخ البوق بوضوح في صباح شتوي، وتنبح الكلاب، ويركب الفرسان بسرعة، ولكنها لا شيء مقارنة بمطاردة الإنسان، وهذا ما شهدت لمحة منه الليلة، كانت هناك نظرة قتل في عيني الرجل عندما مر، ولا أعتقد أن الفارق بين الاثنين كان أكثر من خمسين ثانية، أتمنى أن يكون ذلك كافياً".

استند دايسون في كرسيه المريح، أشعل غليونه، نفث الدخان بعمق، ذرع فيليبس الغرفة ذهاباً وإياباً، يتأمل قصة الموت

العنيف الذي لاحق الرجل على الرصيف، والسكين اللامعة في ضوء المصباح، وغضب المطارد، ورعب الملاحق، ثم قال: "حسناً، وما هو الشيء الذي التقطته من المصرف؟".

قفز دايسون، وضح أنه مندهش للغاية: "ليست لدي أية فكرة، لم أبحث في ذلك، ولكننا سنرى".

فتش جيب سترته وأخرج شيئاً صغيراً لامعاً، وضعه على الطاولة، توهج تحت المصباح، بمجد الذهب القديم النادر، برزت الصورة والحروف بشكل بارز واضح وحاد، وكأنها خرجت من دار السك منذ شهر واحد فقط، انحنى الرجلان، التقطه فيليبس وفحصه عن كثب، وقرأ: (الإمبراطور تيبيريوس قيصر أوغسطس)، ثم نظر إلى ظهر العملة المعدنية، وحدق في دهشة، ثم التفت إلى دايسون بنشوة، وقال: "أتعلم ما الذي وجدته؟".

رد دايسون ببرود: "يبدو أنها عملة ذهبية من العصور القديمة".

"نعم، إنها عملة تيبيريوس الذهبية، انظر إلى ظهرها".

اقترب دايسون، فرأى صورة فون، مخلوق أسطوري نصفه لإنسان والنصف الآخر لماعز، يقف وسط قصب ومياه جارية، ملامحه رغم صغر العملة بارزة في خطوط دقيقة، وجهه جميل ومرعب في الوقت نفسه، فكر دايسون في مقولة شهيرة من مسرحية عن الماعز رفيق طفولة الصبي، كان ينمو تدريجياً مع نموه ويكبر معه، حتى امتلأ الهواء برائحة الماعز النفاذة.

"نعم، إنها عملة غريبة، هل تعرفها؟".

"أعرف أنها واحدة من القطع التاريخية النادرة، وهي مليئة بالحكايات مثل الجواهر التي قرأنا عنها، ودارت حولها سلسلة من الأساطير؛ تقول الحكاية أنها كانت جزءاً من مجموعة سكها الإمبراطور تيبيريوس لإحياء ذكرى فضيحة مشينة، ويمكنك قراءة "فيكتوريا" على ظهر العملة، ويقال إنه بسبب حادث غريب أُذيبت كل المجموعة، ولم تنجُ إلا عملة واحدة، وضاعت وسط التاريخ والأساطير، في فترات زمنية تصل إلى مئة عام ومسافات تمتد عبر القارات، واكتشفها عالم إيطالي، ثم فُقدت وأعيد اكتشافها، ولم يسمع عنها أحد منذ 1727، عندما جلبها من حلب تاجر تركي يدعى السير جوشوا بيرد إلى بلده، ثم اختفى ومعه القطعة بعد شهر من عرضها على هواة جمع التحف، ولم يعرف أحد أين ذهب، وها هي الآن معنا!".

"ضعها في جيبك يا دايسون، لو كنت مكانك لما سمحت لأحد أن يطلع عليها، ولن أتحدث عنها أبداً، هل رآك أي من الرجلين؟".

"لا أعتقد أن الرجل الأول الذي تقيأ في الممر المظلم قد رآني، ومتأكد أن الرجل الثاني لم يتمكن من رؤيتي أيضاً".

"وأنت، ألم ترهما؟ ألن تتمكن من التعرف على أحدهما إن قابلته غداً في الشارع؟".

"لا أعتقد أنني سأميزهما، فقد كانت إضاءة الشارع خافتة، وكانا يركضان كالمجانين".

جلس الرجلان صامتين، كل منهما ينسج خيالاته عن القصة؛ لكن شهوة العجائب تغلبت تغلبت على أفكار دايسون الأكثر رصانة، ثم نطق: "هذا أغرب مما تخيلت، فما رأيته كان غريباً بما فيه الكفاية؛ رجل يتجول في شارع لندني هادئ وعادي، منازل رمادية وجدران، وفجأة يُزاح حجابٌ، ويتصاعد دخان الجحيم من بين الأحجار، توهجت الأرض حمراء ساخنة تحت قدميه، وكأنه يسمع هسهسة مرجل، رجل يركض مرعوباً خوفاً على حياته، تطارده كراهية وغضب وسكين مسلول، أمر مرعب حقيقة. ولكن ما هذا مقارنة بما أخبرتني به؟ فيليبس، أرى أن الحبكة تزداد تعقيداً، وخطواتنا من الآن فصاعداً ستكون محفوفة بالغموض، وأبسط الأحداث ستكون مليئة بالدلالات، يمكنك مقاومة ذلك وإغماض عينيك، ولكنك ستفتحهما قسراً، تذكر كلماتي، سيتعين عليك الاستسلام للمحتوم، وضع بين أيدينا صدفة خيط متشابك، ومن واجبنا تتبعه. أما بالنسبة للمجرم أو المجرمين في هذه القضية الغريبة، فلن يتمكنوا من الهروب منا، سنمد شباكنا على نطاق واسع في هذه المدينة العظيمة، وفي الشوارع والأماكن العامة، وسندرك بطريقة أو بأخرى أننا على اتصال بالمجرم المجهول، وفي

الواقع أتخيله يقترب ببطء من حدودك الهادئة، إنه يتسكع في الشوارع دون هدف، في شوارع ممتدة، يقترب أكثر فأكثر، يجذبه مغناطيس لا يقاوم، كما تنجذب السفن إلى صخرة لودستون في الحكاية الشرقية".

رد فيليبس: "أنا متأكد إنك إن قمت بإخراج العملة وعبثت بها أمام أعين الناس كما تفعل الآن، فيحتمل أن يتصل بك المجرم أو مجرم آخر، وبلا شك ستتعرض لسرقة عن طريق العنف، وغير ذلك ليس هناك سبب يدعونا للقلق، لم يرَك أحد وأنت تلتقط العملة، ولا يعلم أحد أنك تمتلكها، أما أنا فسأنام بسلام، وأواصل أعمالي بأمان، معتمداً على النظام الطبيعي للأشياء. لقد كانت أحداث المساء ومغامرة الشارع غريبة، أوافقك على ذلك، لكني أرفض أن أتدخل أكثر من هذا في الأمر، وإذا لزم سأستشير الشرطة، لن أكون عبداً لعملة تيبيريوس الذهبية، حتى لو ظهرت لي بطريقة مثيرة".

قال دايسون: "وأنا سأخرج كفارس متجول بحثاً عن المغامرة، ليس أنني سأحتاج إلى البحث؛ بل لأن المغامرة ستجدني، سأكون مثل العنكبوت وسط شبكته، مستجيباً لكل حركة، ومتأهباً دائماً".

بعد فترة وجيزة غادر دايسون، وقضى السيد فيليبس بقية الليل يفحص رؤوس سهام حجرية كان قد اشتراها، يعتقد أن من صنعها رجل حديث وليس من العصر الحجري، شعر بخيبة أمل عندما أظهر فحصه الدقيق أن شكوكه في محلها، ولغضبه من الخداع الذي يتعرض له علماء الإنثولوجيا نسي دايسون وعملة تيبيريوس الذهبية، ذهب إلى فراشه عند أول ضوء شمس، وكانت القصة قد اختفت من عقله تماماً.

لقاء الرصيف

يتجول السيد دايسون على مهل في شارع أكسفورد، يعاين كل ما يلفت انتباهه، يشعر أنه مستمتع لأنه يعمل بجد، تداعب عقله وتثير حواسه ملاحظاته للبشر، وحركة المرور، وواجهات المحلات التجارية، تبدو الجدية عليه، وكأنه شخص ملقاة على عاتقه مسؤوليات كثيرة، يوزع نظراته إلى الجانبين بانتباه، خوفاً من أن يفوته حدث مهم، نجا من حادث دهس على التقاطع لأنه يحب أن يمشي بمهل.

الجو دافئ بعد الظهر، توقف لتناول المرطبات في مكان شعبي، فجذبته حركات مذهلة لشخص أنيق على الرصيف المقابل، فتن بها وأصبح يتنفس كسمكة، كانت هناك ثلاثة صفوف من العربات، والشاحنات، وسيارات الأجرة، والحافلات، تندفع شرقاً وغرباً، ولم يكن ليحاول أكثر المغامرين جرأة اجتياز الطريق، لكن الشخص الذي جذب انتباه دايسون بدا وكأنه يثور على حافة الرصيف، يندفع أحياناً إلى الأمام معرضاً نفسه للموت، ثم يرقص بحماس ما أثار ضحك المارة، أخيراً ظهرت فجوة من شأنها أن تختبر شجاعة الرجل بين الصفوف المتشابكة للمركبات، فاندفع إلى الطريق، في حالة من الهياج، ونجى بصعوبة، وانقض على دايسون كما ينقض النمر على فريسته، وقال في حماس شديد: "رأيتك تنظر حولك". وأكمل متلعثماً: "ألا تمانع في إخباري إن كان الرجل الذي خرج من المخبز وقفز في عربة قبل ثلاث دقائق شاباً ذا لحية داكنة ونظارات؟ ألا تستطيع التحدث يا رجل؟ بحق السماء أجبني، إنها مسألة حياة أو موت".

تدفقت الكلمات من فم الرجل بانفعال، يتغير لون وجهه من الأحمر إلى الأبيض، وقطرات العرق تسيل على جبينه، يضرب الأرض بقدميه، ويشد معطفه، وكأن شيئاً يخنقه.

قال دايسون: "سيدي العزيز، أحب دائماً أن أكون دقيقاً، ملاحظتك صحيحة، خرج من المخبز شاب أو رجل، وركض، يبدو متردداً، ومن ثم قفز في عربة تجرها الخيول، يبدو أنها كانت تنتظره، انطلقت شرقاً، وكان صديقك يرتدي نظارة، ربما ترغب في أن أستدعي لك عربة تجرها الخيول لتتبعه؟".

"لا، شكراً لك؛ سيكون هذا مضيعة للوقت". ابتلع الرجل شيئاً بدا وكأنه يرتفع في حلقه، وانزعج دايسون عندما رآه يهتز من الضحك الهستيري، ويتشبث بقوة بعمود إنارة، ويتأرجح ويترنح كسفينة في عاصفة شديدة.

تمتم الرجل: "كيف سأواجه الطبيب؟ من الصعب جداً أن أفشل في اللحظة الأخيرة".

ثم استجمع قواه، وانتصب في وقفته، نظر بهدوء إلى دايسون، وقال: "أنا مدين باعتذار لك، لن يصبر أحد مثلك، هل تمانع بالسير معي لمسافة قصيرة؟ أشعر بالغثيان، أعتقد أن الشمس السبب".

أومأ دايسون برأسه موافقاً، وتفرغ لمراقبة الشخص الغريب بينما يسيران معاً، يرتدي الرجل ملابس تنم عن ذوق هادئ، ولن يكون بإمكان أكثر المتمعنين دقة أن يجد عيباً فيها، رغم أن كل شيء – من قبعته إلى حذائه– بدا غير مناسب، شعر دايسون أن قبعته الحريرية يجب أن تكون عالية ذات تصميم بغيض وترتدى مع معطف صباحي فضفاض، وأخبره حدسه أن الرجل لا يحمل منديل جيب نظيف. لم يكن الوجه أكثر قبولاً، ولم يتحسن بشاربيه الذين كانا بلون الزنجبيل والتحما بذقنه، رغم هذه الإشارات شعر دايسون أن الرجل الذي بجانبه كان شيئاً أكثر من مجرد تجسيد للابتذال. كان يصارع نفسه، يحاول السيطرة على مشاعره، ولكن بين الحين والآخر يتصاعد غضبه إلى وجهه، ومن الواضح أنه يبذل جهوداً كبيرة لمنع نفسه من الانفجار كمجنون. وجد دايسون شيئاً غريباً ومرعباً في مشهد عاطفة خفية تُكافح للسيطرة عليها، وتوشك أن تنفجر بعنف في أية لحظة، قطعا مسافة طويلة حتى تمكن الرجل الذي قابله بصدفة غريبة أن يتحدث بهدوء، وقال: "أنت طيب حقاً، أكرر اعتذاري، فوقاحتي كانت غير مبررة، أشعر أن سلوكي يتطلب تفسيراً، ويسعدني أن أقدمه لك، أتعرف مكاناً قريباً يمكننا الجلوس فيه؟ سأكون ممتناً حقاً".

رد دايسون بجدية: "سيدي العزيز، المقهى الوحيد في لندن قريب من هنا، أرجوك، لا تلزم نفسك بتقديم تفسير لي، ولكن

في نفس الوقت سأكون سعيداً جداً للاستماع إليك، لنذهب إلى المقهى".

سارا في شارع هادئ، ثم انعطفوا إلى ما بدا كممر ضيق يمر ببوابة حديدية مفتوحة، الممر مرصوف بالحجر، مزين بشجيرات جميلة في أواني على الجانبين، ظل الجدران العالية خلق برودة لطيفة بعد أنفاس الشارع المشمسة الحارة. سرعان ما انفتح الممر على ساحة صغيرة، مكان ساحر، قطعة من فرنسا مزروعة في قلب لندن، جدران علية على الجانبين مغطاة بنباتات متسلقة لامعة، أحواض الزهور في الأسفل مبهجة بنباتات الكبوسين والغرنوق والقطيفة، وتفوح منها رائحة عطرية، نافورة وسط الساحة، مخفية بالخضرة، ترسل رذاذاً بارداً يتناثر في الحوض تحتها، وصوت المياه يجعل المكان الهادئ ممتعاً، الكراسي والطاولات موزعة على أبعاد مناسبة، وفي الطرف الآخر من الفناء أبواب عريضة مفتوحة على مصراعيها، وخلفها غرفة طويلة مظلمة، أصبح ضجيج المرور همهمة بعيدة، بالداخل رجل أو اثنان يجلسان على الطاولات، يكتبان، ويشربان، لكن الفناء كان فارغاً.

قال دايسون: "كما ترى، سنلتزم الهدوء، من فضلك اجلس هنا يا سيد.....".

"ويلكينز، اسمي هنري ويلكينز".

"اجلس هنا يا سيد ويلكنز. أعتقد أنك ستجد هذا المقعد مريحاً. أفترض أنك لم تأتِ إلى هنا من قبل؟ هذا الوقت يكون المقهى فيه هادئاً، وبعد السادسة يصبح مزدحماً أشبه بخلية نحل، وستتدفق الكراسي والطاولات إلى ذلك الممر الصغير هناك".

جاء النادل استجابة لنداء الجرس، سأله دايسون عن صحة السيد أنيبولت صاحب المكان، ثم طلب زجاجة من نبيذ فرنسي، ثم قال للسيد ويلكنز، الذي أصبح أكثر هدوءاً بفضل أجواء المكان: "إن هذا النبيذ جودته عالية، دعني أملأ كأسك... كيف وجدته؟".

قال السيد ويلكنز: "بالفعل، إنه رائع، الرائحة مغرية، أنا محظوظ لمصادفتي شخصاً طيباً مثلك، أتساءل، لماذا لم تعتقد أنني مجنون؟ ولكنك إن عرفت الرعب الذي شعرت به، فأنا متأكد أنك لن تتفاجأ بتصرفي الذي لا يمكن تبريره".

ارتشف نبيذه، واتكأ على كرسيه، مستمتعاً بصوت الماء واللون الأخضر المنعش الذي يحيط بالمكان الهادئ، ثم امتدح دايسون النبيذ مرة أخرى وعرض عليه زجاجة أخرى، استدعوا النادل وخرج وهو يكاد لا يُرى من الأرضية، وكان يحمل زجاجة النبيذ، أشعل السيد ويلكنز سيجارة، وأخرج دايسون غليونه، وقال السيد ويلكنز: "وعدتك أن أبرر لك سلوكي الغريب، إنها قصة طويلة بعض الشيء، لكني أرى يا سيدي أنك لست مجرد مراقب بارد لتيارات الحياة، وأظنك تهتم بأحوال البشر، وأؤمن أن ما سأرويه لك سيستحوذ على اهتمامك".

أبدى السيد دايسون موافقته رغم أسلوب السيد ويلكينز المبالغ فيه، إلا أنه اهتم بسماع القصة، والرجل الذي كان يغلي من الغضب قبل نصف ساعة هدأ تماماً، وما أن أنهى سيجارته بدأ بسرد قصته بصوت هادئ.

رواية الوادي المظلم

أنا ابن وحيد لقس فقير ولكنه متعلم في غرب إنجلترا، لكنني أنسى أن هذه التفاصيل ليست ذات أهمية. سأختصر القول، رغم أن والدي كان مثقفاً إلا أنه لم يتعلم فنون الزيف ليتملق الكبار، ولم يكن ليخضع أبداً لرغبة ذات دنيئة ليظهر نفسه. كان شغوفاً بالطقوس القديمة والعادات الغريبة، وله قلب طيب لا مثيل له، وتقوى بدائية ملتهبة، جعلته محبوباً بين أبناء رعيته في الريف، إلا أن هذه لم تكن الخطوات التي يرتقي بها رجال الدين في الكنيسة، وفي الستين من عمره كان والدي ما زال قساً على الرعية الصغيرة التي قبلها وهو في الثلاثين من عمره، كان قد دخل المعيشة بالكاد يكفي حياة لائقة لقس أنجليكاني. توفي والدي منذ بضع سنوات، وجدت نفسي أواجه العالم برأس مال ضئيل لا يتجاوز المئة جنيه، وكل مشاكل الحياة أمامي. شعرت أنه لا يوجد ما أفعله في الريف، وكما يحدث عادة في مثل هذه الأماكن، جذبتني لندن مثل المغناطيس.

في أحد أيام أغسطس/آب، في الصباح الباكر، كان الندى لا يزال يلمع على العشب وعلى ضفاف الزقاق الخضراء المرتفعة، قادني أحد الجيران إلى محطة السكة الحديدية وودعت أرض المروج الواسعة والحصون الغريبة على التلال. اقتربنا من لندن في حوالي الساعة السادسة، دخان مصانع الطوب حول أكتون تسلل عبر النافذة المفتوحة، الضباب يرتفع من الأرض، أصابتني مناظر الشوارع المتتالية المرتبة والمتشابهة بشعور من الرتابة؛ الهواء الساخن ازداد سخونة؛ وعندما مررنا تحت المنازل الكئيبة القذرة التي تطل ساحاتها الخلفية المهملة على خط السكة الحديد بالقرب من بادينغتون، ضاق صدري بسبب أنفاس لندن الخانقة. استقليت، كل شارع أمر عليه يزيد من كآبتي، المنازل رمادية ستائرها مسدلة، طرق رئيسية تكاد تكون مهجورة، المشاة كأنهم يترنحون من التعب، فشعرت باليأس.

أقمت في فندق صغير على الشارع المؤدي إلى ستراند، حيث كان والدي يقيم في زياراته القصيرة للمدينة. خرجت بعد العشاء، لم تستطع حيوية وصخب شارعي ستراند وفليت أن يبهجاني، لأني لا أعرف ولو شخص واحد في هذه المدينة الكبيرة، ولن أزعجك بأحداث العام التالي، فهي مغامرات مبتذلة لا تستحق الذكر لرجل يعاني. قارب مالي على النفاد، وقررت أن أرتدي ملابس أنيقة ليستمع إليّ الناس، وأن أسكن في شارع سمعته جيدة لتتم معاملتي بأدب.

تقدمت بطلبات مختلفة للعمل، وكما أرى الآن فإنني غير مؤهل لها، حاولت أن أصبح كاتباً دون أن يكون لديّ أدنى فكرة عن عادات العمل، وخسرت خسارة كبيرة حتى أدركت أن المعرفة العامة بالأدب وأسلوب الخط البغيض بعيدان كل البعد عن أن يكونا محل تقدير في وسط التجارة. قرأت رواية ساحرة لروائي مشهور في الوقت الحاضر، فأصبحت أتردد على حانات شارع فليت على أمل تكوين صداقات أدبية، وبالتالي الحصول على المقدمات التي عرفت أنه لا غنى عنها في مسيرة الأديب، خاب أملي بعد أن تجرأت لمرتين على مخاطبة سادة يجلسون في مقصورات متجاورة، وتم رفضي بلطف، جنيهاً تلو الآخر، فذابت مواردي الصغيرة، ولم أعد أفكر في المظاهر، فانتقلت إلى حي متواضع، وأصبحت وجباتي مجرد طقوس، أخرج في الواحدة وأعود إلى غرفتي في الثانية، ولا أتناول إلا كعكة بالحليب في هذه الفترة، باختصار، عرفت على سوء الحظ.

جلست وسط الوحل والثلوج على مقعد في هايد بارك، أمضغ قطعة خبز، أدركت مرارة الفقر، ومشاعر الرجل الذي هوى إلى مرحلة التشرد، رغم الإحباط لم أتوقف عن محاولاتي لكسب لقمة العيش، أتابع أعمدة الإعلانات، عيناي مفتوحتان بحثاً عن فرصة، أنظر إلى نوافذ متاجر القرطاسية ولكن دون جدوى. ذات مساء كنت في مكتبة عامة، ورأيت إعلاناً في إحدى الصحف، كان شيئاً من هذا القبيل: "يطلب رجل نبيل شخصاً يتمتع بالذوق والقدرات الأدبية كسكرتير وكاتب، ويجب ألا يعترض على السفر". أعلم أن مثل هذا الإعلان سيجلب مئات الطلبات، وظننت أن فرصتي في الحصول على الوظيفة ضئيلة للغاية، ومع ذلك تقدمت بطلبي على العنوان المذكور، وكتبت إلى السيد سميث، الذي كان يقيم في فندق كبير في ويست إند.

دق قلبي بقوة عندما تلقيت مذكرة بعد يومين، تطلب مني زيارة الكوزموبول في أقرب وقت ممكن. لا أعرف يا سيدي تجاربك في الحياة، وبالتالي لا أستطيع أن أقول ما إذا كنت قد عرفت مثل هذه اللحظات، أشبه بمرض طفيف، وغثيان، خفق قلبي بسرعة أكثر من المعتادة، اختناق في الحلق، صعوبة في النطق. هذه مشاعري وأنا أسير إلى الكوزموبول. ذكرت الاسم مرتين قبل أن يفهمني حارس الفندق، صعدت إلى الطابق العلوي، يداي مبتلتان، تأثرت كثيراً بمظهر السيد سميث، بدا أصغر مني سناً، لمست لطافة وتردد في تعبيراته، كان يقرأ عندما دخلت، ورفع رأسه عندما ذكرت اسمي.

"سيدي العزيز".

"أنا سعيد حقاً برؤيتك، قرأت الرسالة التي بعثتها لي بعناية شديدة، ومن طيب معدنك إرسالها لي، هل هذه الورقة بخط يدك؟".

أراني الرسالة التي كتبتها، وقلت له إنني لست قادراً على أن أعين سكرتير يكتب لي رسائلي، وقال: "إذن، سيدي، فالوظيفة التي أعلنت عنها لك، أفترض أنك لا تمانع بالسفر؟".

قبلت العرض الذي قدمه لي بسعادة، وهكذا أصبحت في خدمة السيد سميث، لم تكن لديّ واجبات في الأسابيع الأولى، وتلقيت راتب ربع سنة، ومنحني بدلاً سخياً للطعام والسكن. في صباح أحد الأيام، حضرت إلى الفندق وفقاً للتعليمات، أبلغني سيدي أن أستعد لرحلة بحرية، وأحمل الضروريات فقط، وصلنا إلى نيويورك في غضون أسبوعين، أخبرني السيد سميث أن عمله له طبيعة خاصة، وأنه من الضرورة إجراء أبحاث خاصة، وفهمت أننا سنسافر إلى أقصى الغرب.

قضينا أسبوع في نيويورك، ركبنا القطار وبدأنا رحلة مملة تتجاوز التصورات. يوماً بعد يوم، وليلة بعد ليلة، والقطار الكبير يتقدم، يشق طريقه عبر مدن أسماؤها غريبة عليّ، ويسير ببطء فوق الجسور الخطرة، يدور حول سلاسل الجبال وغابات الصنوبر، ويغوص في مساحات كثيفة من الغابات، أميال تلو أميال، وساعات تتلو الساعات، ويعرض نفس النمو الرتيب للأحراش، وعلى طول الطريق كانت قعقعة العجلات تعلو على السكك غير المستوية، ما يجعلنا لا نسمع أصوات الركاب الآخرين.

كنا مجموعة غير متجانسة تتغير باستمرار، أستيقظ منتصف الليل على صوت صرير الفرامل المفاجئ، أنظر إلى الخارج، أجد أننا توقفنا في شارع متهالك في مدينة مبنية بالأخشاب، تضيئها أنوار نوافذ الحانات، يتجمع رجال بمظهر خشن يحدقون في العربات، وينزل الركاب أحياناً في مجموعات من اثنين أو ثلاثة، يجلسون على الرصيف الخشبي ينتظرون القطار أن يبدأ في التحرك، أغلب الركاب من الإنجليز، أسر متواضعة انتزعت من جذورها التي تعود إلى آلاف السنين، يتجهون إلى جنة مشكوك فيها، صحاري ملحية أو إلى جبال روكي.

سمعت رجالاً يتحدثون عن الأرباح الكبيرة التي يمكن جنيها من الأراضي البكر في أمريكا، وكان اثنان أو ثلاثة منهم ميكانيكيين، يتحدثون عن الأجور المرتفعة التي تُمنح للعمالة الماهرة في السكك الحديدية والمصانع الأمريكية، حديث ينتهي عادة بعد بضع دقائق، وألمس الغثيان والذهول على وجوههم وهم ينظرون إلى الأحراش القبيحة والمساحات الشاسعة المهجورة من البراري، التي تتناثر فيها منازل خشبية خالية من الحدائق أو الزهور أو الأشجار، تقف وحدها فيما قد يكون بحراً رمادياً كبيراً متجمداً من السكون.

يوماً بعد يوم يتمايل الأفق، أراضٍ خربة لا شكل لها أو لون أو تنوع، أفزعت قلوبنا نحن الإنجليز. كنت مستيقظاً ذات ليلة، سمعت امرأة تبكي وتنتحب، وتسأل عما فعلت لتأتي إلى مثل هذا المكان. حاول زوجها مواساتها بلهجة سكان غلوسترشاير، قائلاً لها إن الأرض خصبة جداً، وما على المرء سوى حرثها لتنمو أزهار عباد الشمس من تلقاء نفسها، لكنها بكت على والدتها وكوخهم القديم وخلايا النحل مثل طفل صغير، غمرني الحزن، ولم أستطع التفكير في أمور أخرى. أتساءل عما قد يفعله السيد سميث في هذا البلد، وأي بحث أدبي يمكن إجراؤه في البرية، يزعجني بين الحين والآخر أن موقفي غريب، أعمل كمساعد أدبي براتب جيد، ومع ذلك فإن سيدي لا يزال غريباً عليّ، يأتي أحياناً إليّ ويبدي

ملاحظات عادية عن البلدات، ولكنه أغلب الرحلة يجلس بمفرده ولا يتحدث مع أحد، أظنه غارق في أفكاره.

في اليوم الخامس من نيويورك تلقينا إشارة أننا سنغادر القطار قريباً، شاهدت جبالاً بعيدة ارتفعت بوحشية أمامنا، تساءلت إن كان هناك بشر تعساء يتحدثون عن الوطن، وارتباطهم بتلك الأكوام الضخمة من الصخور، لمسني السيد سميث برفق على كتفي، وقال: "ستكون سعيداً بانتهاء رحلة القطار، ليس لديّ شك في ذلك سيد ويلكنز، أعتقد أنك كنت تنظر إلى الجبال؟ حسناً، آمل أن نكون هناك الليلة، سيتوقف القطار في ريدينج، وسنتمكن من العثور على طريقنا".

بعد بضع ساعات توقف القطار في محطة ريدينغ ونزلنا، لاحظت أن البلدة كلها تقريباً من المنازل الخشبية، ولكن المحطة كانت أكبر وأكثر ازدحاماً من أية بلدة مررنا بها في اليومين الماضيين، مزدحمة، رنين أجراس وصافرة القطار، عدد من الأشخاص يستعدون لمغادرة القطار، وعدد أكبر ينتظر الصعود، وهناك حشد كثيف من الناس، بعضهم جاء لاستقبال أو توديع أصدقائهم وأقاربهم، بينما كان الآخرون مجرد متسكعين. نزل كثير من رفاقنا الإنجليز في ريدينج، لكن الازدحام كان كبيراً، فاختفوا عن بصري فوراً.

أشار إلي السيد سميث أن أتبعه، وسرعان ما كنا في خضم الحشد؛ وكان الرنين المستمر للأجراس، وضجيج الأصوات، وصراخ الصافرات، وهسيس البخار المتصاعد، سبباً في إرباك حواسي، تساءلت وأنا أجاهد خلف صاحب عملي: إلى أين نحن ذاهبون. وكيف يمكننا أن نجد طريقنا عبر بلد مجهول؟ ارتدى السيد سميث قبعة عريضة الحواف، أمالها على عينيه، كان جميع الرجال تقريباً يرتدون قبعات شبيهة، فصعب عليّ أن أميزه وسط الحشود. تحررنا، سلك طريقاً جانبية، وانعطف مرة أو مرتين إلى اليمين واليسار، الوقت يقترب من الغسق، نمر عبر جزء هادئ من المدينة، عدد قليل من الناس في الشوارع سيئة الإضاءة، الرجال ليست لهم جاذبية، توقفنا أمام منزل على زاوية، رجل يقف عند الباب، يبدو أنه يبحث عن شخص ما، لاحظته يتبادل نظرات حادة مع سميث.

"أعتقد أنك من مدينة نيويورك يا سيدي؟".

"نعم".

"حسناً، إنهم جاهزون، سيكونون معك ما إن تقرر، أعرف أوامري، كما ترى، وكلي عزم على إنجاز المهمة".

"جيد جداً سيد إيفانز، هذا ما نريده. أموالنا حاضرة وجيدة كما تعلم، أحضرهم".

وقفت بصمت أستمع للحوار، وأتساءل عن معناه، بدأ سميث يمشي بفارغ الصبر ذهاباً وإياباً في الشارع، وإيفانز لا يزال واقفاً عند بابه، أطلق صافرة حادة، ورأيته ينظر إليّ بشكل هادئ ومتأنٍّ، كما لو كان يحاول التأكد من وجهي. أفكر فيما يعنيه كل هذا، فجاء شاب قبيح منحني القامة من ممر جانبي، يقود حصانين هزيلين، فقال لي سميث: اركب يا سيد ويلكنز بسريعة، ينبغي أن نواصل طريقنا".

انطلقنا في الظلام الحالك، وبعد فترة التفت إلى الوراء ورأيت السهل البعيد خلفنا، وأضواء المدينة تتلألأ بخفوت، وأمامي ترتفع الجبال. يقود سميث حصانه بثقة على الأرض الوعرة، كما لو أنه في شارع بيكاديللي، تبعته قدر استطاعتي. كنت متعباً ومنهكاً ولم ألاحظ شيئاً؛ شعرت أن الطريق يرتفع تدريجياً، حولي صخور ضخمة، لم تترك الرحلة فيّ انطباعاً كبيراً، وأطياف ذكرى لعبورنا غابة صنوبر سوداء كثيفة، كانت خيولنا تختار طريقها بين الصخور، وأتذكر التأثير الغريب للهواء بينما كنا نستمر في الصعود إلى أعلى، أعتقد أنني كنت نصف نائم في النصف الثاني من الرحلة، وصعقت عندما سمعت سميث يقول: "ها نحن ذا، ويلكينز، هذه حديقة بلو روك، ستستمتع بالمناظر غداً، سنتناول بعض الطعام الليلة، ثم نذهب إلى الفراش".

خرج رجل من منزل بدا بدائي وأخذ الخيول، وجدنا شرائح لحم مقلية وويسكي في الداخل، المكان غريب، فيه ثلاث غرف، الغرفة التي تناولنا فيها العشاء، وغرفة سميث وغرفتي، والرجل المسن الأصم الذي قام بالعمل نام في كوخ صغير.

استيقظت صباحاً، خرجت، ووجدت المنزل يقع في وادٍ صغير بين الجبال، وعرفت سبب تسمية المكان ب" Blue Rock Park"،

بسبب أشجار الصنوبر الكثيرة التي نبتت بين صخور ضخمة ذات لون رمادي بازرقاق، الجبال تحيط بنا ومغطاة بالثلوج، هواء الجبل نقي ومنعش كنبيذ، تسلقت المنحدر ونظرت للأسفل، أدركت أنه من جانب الرفقة البشرية، كنت كمن تحطمت سفينته ووجد نفسه في جزيرة صغيرة وسط المحيط الهادئ، والأثر الوحيد للإنسانية الذي استطعت رؤيته هو المنزل الخشبي البدائي الذي نمت فيه، ولجهلي لم أكن أعلم أن هناك منازل مماثلة على مسافة قريبة وفقاً لمعايير جبال روكي.

في تلك اللحظة، هاجمني الشعور بالوحدة، فكرت في السهل الشاسع والبحر الواسع الذي يفصلني عن العالم الذي أعرفه، وتساءلت عما إذا كنت سأموت هنا في هذا الوادي الجبلي، كانت لحظة مروعة، ما زلت أتذكرها حتى الآن، تمكنت من التغلب على رعبي، وقلت إني سأصبح أقوى من هذه التجربة، وقررت أن أستفيد من كل شيء. كانت حياة قاسية، والمأكل والمأوى بسيطين، تُركت وحدي تماماً. بالكاد كنت أرى سميث، ولا أعرف متى يكون في المنزل، كثيراً ما ظننت أنه بعيد، وأتفاجأ برؤيته يخرج من غرفته، يغلق الباب خلفه ويضع المفتاح في جيبه، وفي عدة مرات ظننته مشغولاً في غرفته فأراه يدخل بحذاء مغطى بالغبار والأوساخ.

وفيما يتعلق بالعمل، كنت أتمتع بوظيفة دون مسؤوليات، ولم يكن لديّ ما أفعله سوى التجول في الوادي والأكل والنوم. بمرور الوقت اعتدت الحياة، واستراحت نفسي قليلاً، وبالتدريج تجرأت على الابتعاد عن المنزل والمغامرة لاستكشاف المنطقة. في أحد الأيام وصلت لوادٍ قريب، فتفاجأت بوجود رجال يجمعون الأخشاب، اقتربت منهم؛ آملاً أن يكون بعضهم إنجليزاً، وعلى أيّة حال كانوا بشراً، وسأسمع كلاماً مفهوماً، لأن الرجل العجوز الذي ذكرته، بالإضافة إلى كونه نصف أعمى وأصم تماماً، كان أخرس تماماً ولا يتحدث معي. كنت مستعداً لاستقبال فاتر لا مجاملات فيه، لكن النظرات القاسية والإجابات القصيرة أخافتني، تبادلوا نظرات غريبة، توقف أحدهم عن العمل واستل بندقيته، واضطررت للعودة لاعناً المكان، أرض فيها الرجال أكثر وحشية من الوحوش.

بدأت العزلة تضايقني، كما لو كنت في كابوس، بعد بضعة أيام قررت المشي إلى محطة على بعد أميال قليلة، كان هناك نزل بدائي لإيواء الصيادين والسياح. كان بعض السادة الإنجليز يتوقفون هناك أحياناً للمبيت، وقد ألتقي بشخص أكثير تهذيباً من سكان المنطقة، وكما توقعت وجدت مجموعة من الرجال يتسكعون عند باب النزل الخشبي، اقتربت، رأيتهم يهمسون لبعضهم ويتبادلون النظرات، وما إن وصلت حدق بي ستة أو سبعة من صيادي الفراء بنظرات عدائية، وبشيء من الاشمئزاز الذي يشعر به المرء عندما يرى ثعباناً بغيضاً ساماً. شعرت أنني لم أعد أتحمل، فصرخت:

"هل يوجد بينكم رجل إنجليزي، أو شخص لديه القليل من التحضر؟".

وضع أحد الرجال يده على حزامه، لكن جاره أوقفه وأجابني: "سترى، سنمتلك وسائل التحضر قريباً سيدي، وأتوقع أنك لن تستمع بها كثيراً. وعلى أيّة حال، هناك إنجليزي يقيم هنا، ولا شك أنه سيسعد برؤيتك. ها هو، هذا السيد داوبرنون".

جاء شاب يرتدي زي النبلاء الإنجليز، وقف عند الباب ونظر إليّ. وأشار أحد الرجال إليّ، وقال: "هذا الشخص الذي تحدثنا عنه الليلة الماضية، قد ترغب في رؤيته سيدي".

تغيّر وجه الشاب الإنجليزي الودود، وألقى عليّ نظرة قاسية، ثم استدار بعيداً بازدراء واشمئزاز، صرخت: "سيدي، لا أعلم ما الذي فعلته لأستحق هذه المعاملة، أنت مواطن من بلدي، توقعت بعض اللباقة منك".

رمقني بنظرة قاسية، وكان سيغادر لولا أنه غير رأيه في اللحظة الأخيرة وواجهني: "أعتقد أنك تتصرف بتهور كبير، أنت تعتمد على تسامح لن يدوم طويلاً، واسمح لي أن أخبرك بهذا يا سيدي، يمكنك أن تطلق على نفسك رجل إنجليزي وتمرغ اسم إنجلترا في الوحل، لا تعتمد على أي نفوذ إنجليزي لمساعدتك. لو كنت مكانك لما بقيت هنا طويلاً".

ثم دخل النزل، وقف الرجال يراقبون وجهي بهدوء، لم أتحرك، أتساءل إن كنت قد فقدت عقلي، ثم خرجت سيدة وحدقت

فيّ كما لو كنت وحشاً برياً أو متوحشاً، التفت إليها وتحدثت بهدوء: "أنا جائع وعطش، ومشيت مسافة طويلة، ولديّ الكثير من المال، هل ستعطيني شيئاً لآكله وأشربه؟".

قالت: "لا، لن أفعل ذلك، من الأفضل أن تغادر هذا المكان".

زحفت إلى المنزل كوحش جريح، استلقيت على سريري. كان الأمر كله لغزاً لا أمل في حله، لم ألمس سوى الغضب والعار والرعب، وعانيت أكثر عندما مررت بمنزل في وادٍ مجاور، وهرب أطفال كانوا يلعبون ما إن رأوني راحوا يصرخون، اضطررت إلى السير بحثاً عن شيء يشغلني، كنت سأموت لو بقيت جالساً في حديقة بلو روك أنظر إلى الجبال طوال اليوم. في كل مكان رأيت فيه إنساناً وجدت نفس نظرات الكراهية والنفور. ذات مرة كنت أعبر غابة سمعت طلقة، وهسهسة سامة لرصاصة قريبة من أذني. في أحد الأيام سمعت محادثة أذهلتني، كنت أستريح خلف صخرة، وتوقف رجلان لأن فدم أحدهما قد تشابكت ببعض الأعشاب البرية، فشتم، وضحك الآخر، وقال أنها أشياء مفيدة في بعض الأحيان.

"ماذا تقصد بحق الجحيم؟".

"أوه، لا شيء، ولكن هذه الأعشاب قوية جداً، والحبال التي تصنع منها تكون نادرة وغالية".

ضحك الرجل الذي كان غاضباً، جلسا وأشعلا غليونهما، وسأل الرجل المازح: "أرأيته مؤخراً؟".

"رأيته، لكن الرصاصة اللعينة مرت قريبة منه، إنه محظوظ مثل سيده، لكن هذا لن يدوم طويلاً، سمعت أنه ذهب إلى حانة جينكس وحاول خداعه، لكن الشاب البريطاني أسكته".

"وما تفسير ذلك؟".

"لا أعرف، يجب إنهاء الأمر، وإنجازه بالطريقة القديمة، هل تعرف كيف كانوا يتعاملون مع الزنوج؟".

"نعم، رأيت شيئاً من ذلك، ستكلفك بضعة جالونات من الكيروسين دولاراً واحداً في متجر براون، لكني أعتقد أنه رخيص على أيّة حال".

ابتعد الرجلان، وبقيت مستلقياً خلف الصخرة، يتصبب العرق من وجهي، شعرت بالمرض حيث بالكاد استطعت الوقوف، عدت إلى المنزل أتكئ على عصا وأمشي ببطء كعجوز، أعلم أن الرجلين كانا يتحدثان عني، وأن موتاً مروعاً ينتظرني، فلم أستطع النوم تلك الليلة، تقلبت على السرير الخشن، أتعذب لمعرفة سبب كل هذا.

في منتصف الليل نهضت من السرير، ارتديت ملابسي وخرجت. لم أهتم للمكان الذي سأذهب إليه، رغبت في المشي حتى أشعر بالإنهاك، كانت ليلة صافية ومقمرة، وبعد ساعتين وصلت لمكان مشؤوم سيء السمعة، وادٍ عميق في الصخور، يُعرف باسم: Black Gulf Cañon. خيم قبل سنوات فيه مجموعة من الإنجليز رجال ونساء، وحاصرهم الهنود الحمر، أسروهم وتعرضوا للقتل والتعذيب بطرق مرعبة لا يمكن تخيلها، وأصبح الناس يتجنبون المرور في الوادي حتى في وضح النهار، بما فيهم الصيادون الأقوياء. شققت طريقي عبر الأدغال الكثيفة التي في الوادي، سمعت أصواتاً، وتساءلت من هنا في هذا المكان والوقت، واصلت سيري بحذر أكبر، وبأقل قدر ممكن من الضوضاء.

اختبأت خلف شجرة كبيرة على حافة الصخور، اختلست النظر، الوادي تحتي سطع ضوء القمر في أعماقه، وألقى ظلالاً سوداء كالموت من الصخور المدببة، وعلى الجانب الآخر من الوادي كانت الصخور في الظلام الدامس، بين الحين والآخر يحجب ضوء القمر مرور سحابة رقيقة. هبت ريح قارصة، نظرت إلى الأسفل، رأيت عشرين رجلاً يقفون حول صخرة في نصف دائرة، أحصيتهم واحداً تلو الآخر وعرفت معظمهم؛كانوا أشرس الأشرار وأكثرهم دناءة في عصابات لندن، وكثير منهم مطلوبون في جرائم قتل أو أسوأ من ذلك. وكان السيد سميث يواجههم وأمامه صخرة كبيرة عليها ميزان كبير من النوع المستخدم في المتاجر، سمعت صوته يتردد في الوادي فتجمد قلبي، صاح: "الحياة مقابل الذهب، الدم وحياة العدو مقابل كل رطل من الذهب".

خرج رجل رافعاً إحدى يديه، وألقى بالأخرى قطعة لامعة في وعاء الميزان فصدر صوت ارتطام، تمتم سميث في أذنه، ثم صاح مرة أخرى: "الدم مقابل الذهب، مقابل رطل من الذهب، حياة العدو مقابل كل رطل من الذهب على الميزان".

تقدم الرجال واحداً تلو الآخر، يرفع كل واحد منهم يده اليمنى، تم وزن الذهب في الميزان، وفي كل مرة كان سميث ينحني للأمام ويتحدث إلى كل رجل في أذنه. ثم صاح مرة أخرى: "الرغبة والشهوة، من أجل الذهب على الميزان، مقابل كل رطل من الذهب متعة ورغبة".

الأمر يتكرر، يد مرفوعة، معدن ثقيل، همس، غمامة سوداء على كل وجه، ثم رأيت الرجال يتقدمون واحداً تلو الآخر نحو سميث، تدور بينهم محادثة لم أسمعها، وبدا سميث يشرح ويوجه، ويلوح بيديه كمن يشير إلى الطريق، وحرك يديه بسرعة مرة أو مرتين وكأنه يريد أن يبين أن الطريق واضحة، ركزت نظري عليه حتى أني لم ألحظ التفاصيل الأخرى، وفجأة أدركت أن الوادي أصبح فارغاً، لا أحد فيه، عدت إلى المنزل مرعوباً، وذهبت في نوم عميق من شدة الإرهاق. حسبت أني سأنام طويلاً، ولكني استيقظت والشمس تشرق للتو، ضوؤها على سريري، قفزت من النوم وأنا أشعر أني تلقيت صدمة عنيفة، نظرت حولي في حيرة فاندهشت لرؤية ثلاثة رجال في الغرفة، وضع أحدهم يده على كتفي، وقال: "استيقظ يا سيدي، حان الوقت، والأولاد ينتظرونك بالخارج وهم في عجلة من أمرهم. تعالَ؛ يمكنك ارتداء ملابسك، الجو بارد هذا الصباح".

ابتسم الرجلان الآخران لبعضهما بمرارة، لم أفهم شيئاً، ارتديت ملابسي وقلت إنني مستعد، فقال: "حسناً، اذهب أنت أولاً يا نيكولز، وأنا وجيم سنساعد السيد".

أخرجوني إلى ضوء الشمس، عندها فهمت سبب الهمهمة الغامضة التي كنت أسمعها عندما كنت أرتدي ملابسي، يقف في الخارج حوالي مائتي رجل، وبعض النساء أيضاً، ما إن رأوني خرجت أصوات غاضبة، لم أعرف ما الذي فعلته، لكن الضجيج جعل قلبي يخفق بقوة والعرق يتصبب مني، الرؤية مشوشة، كما لو أنها كنت من خلال حجاب، فوضى وحشود تتمايل، أصوات متنافرة، الأمر الموحد في كل الوجوه غياب نظرة الرحمة، وكانت كلها تحمل غضباً وحشيّاً لم أفهمه، وجدت نفسي أسير في موكب يصعد منحدر الوادي، وعلى جانبيّ رجال يحملون المسدسات، تصلني كلمات لم تمكني من بناء قصة مترابطة، فأغلبها كانت تلعن. ثم سمعت قصصاً غريبة وغير معقولة، منها عن رجال تم استدراجهم من منازلهم بالحيلة وتعرضوا لتعذيب شديد، ثم عثر عليهم في أماكن بعيدة وهم يتلوون كثعابين جريحة، يتوسلون أن يقوم أحد بطعن قلوبهم لإنهاء عذاباتهم. سمعت صوتاً آخر يتحدث عن فتيات بريئات اختفين ليوم أو يومين، ثم عدن ومتن، وقد احمرت وجوههن خجلاً حتى عند آلام الموت.

أتساءل عما يعنيه كل هذا، وماذا سيحدث، لكني كنت منهكاً حتى أني كنت أسير وكأني في حلم، لم أرد إلا النوم، وصلنا إلى قمة التل المطلة على وادي بلو روك فتوقفوا، أحاط بي المسلحون أوقفوني تحت الأشجار التي كنت أجلس عندها كثيراً، وكان رجلان أو ثلاثة منهم منهمكين في جمع قطع الخشب، وآخرون يمسكون بحبل، فجأة اضطرب الناس، ودُفع رجل كانت يداه وقدماه مقيدتين بإحكام بحبل إلى الأمام، أشفقت عليه رغم الشر الذي بان على وجهه؛ لأن الألم اعتصر وجهه وشد شفتيه، عرفته، كان من ضمن الرجال الذي تجمعوا حول سميث في وادي بلاك غولف.

فكوا قيده وجردوه من ملابسه؛ لفوا حبلاً على عنقه مربوط بجذع الشجرة، صوت أجش أعطى أمراً ما، فاندفعت الأقدام وشد الحبل، ثم رأيت الوجه مسودّاً وأطراف ملتوية وعذاب الموت المخزي. تتالى الأمر، تم خنق ستة رجال، رأيتهم كلهم في الوادي الليلة الماضية، أُلقيت جثثهم على الأرض. ثم جاء الرجل الذي أيقظني قبل قليل، وقال: "حان دورك الآن يا سيدي، سنمنحك خمس دقائق لمراجعة حساباتك، وعندما تنتهي سنحرقك حياً على تلك الشجرة".

حينها تنبّهت مصعوقاً وفهمت الأمر، فصرخت: "لماذا، ما الذي فعلته؟ لماذا تؤذوني؟ أنا رجل مسالم، ولم أخطئ في حق أحد". غطيت وجهي بيديّ؛ بدا الأمر مؤسفاً للغاية، والموت مروع، عدت للصراخ: "لا بد أنكم تخلطون بيني وبين شخص آخر، أنتم لا تعرفونني".

قال الرجل الذي كان بجانبي: "أيها الشيطان أسود القلب، نعرفك جيداً، لا يوجد رجل على بعد ثلاثين ميلاً من هنا لن يلعن جاك سميث عندما تحترق في الجحيم".

قلت وأنا أشعر ببعض الأمل: "اسمي ليس سميث، أنا ويلكينز، سكرتير السيد سميث، لكنني لم أكن أعرف شيئاً عنه".

قال الرجل: "اسمعوا الكذاب الأسود، السكرتير! كلام فارغ، كنت ذكياً لتتسلل ليلاً لتخفي وجهك في الظلام، لكننا اكتشفناك، وقتك انتهى، تعالَ".

جروني إلى الشجرة وقيدوني بالسلاسل، أكوام الخشب حولي، أغمضت عيني، شعرت بسائل يغمر جسدي، فتحت عيني، امرأة تبتسم ساخرة، بعدما أفرغت علبة من البترول عليّ وعلى الحطب، سمعت صياح: "أشعلوا النار".

فقدت وعيي ولم أدرك ما حدث بعد ذلك. عندما فتحت عينيّ وجدت نفسي مستلقياً على سرير في غرفة خالية من وسائل الراحة، طبيب يحرك أملاحاً قوية قرب أنفي، ورجل آخر يقف بجوار السرير، عرفته لاحقاً، كان الرّجل النّبيل، خاطبني: "اسمع، يا سيدي، كنت على مقربة من الموت، وكان الأولاد سيشعلون النار عندما وصلت ومعي رجال الشرطة، بذلت جهداً كبيراً لإنقاذك، ولا ألومهم على ذلك، فقد كانوا مقتنعين أنك رئيس عصابة بلاك غولف، حاولت إقناعهم بأنك لست جاك سميث ولم يسمعوا، ولكن لحسن الحظ تقدم رجل كان معنا واسمه إيفانز، وأكد أنه رآك مع جاك سميث وأنك لست هو، وبعدها أودعناك السجن، ولكن باستطاعتك المغادرة عندما تتعافى من النوبة التي أصابتك".

ركبت القطار اليوم التالي، وبعد ثلاثة أسابيع كنت في لندن، شبه مفلس، ولكن حظي تغير بعدها، كونت صداقات مؤثرة كثيرة، وسعى مديرو البنوك لصحبتي، وتهافت المحررون عليّ، وكان عليّ أن أختار مساري المهني فقط، وبعد فترة رحت أدرك حياة الراحة والفراغ، وبسهولة بدت سخيفة. حصلت على وظيفة جيدة الأجر، ترتبط بأحد الأندية السياسية، وأصبحت لديّ شقة جميلة في حي مركزي قرب الحدائق، ورئيس الطهاة في النادي يبذل قصارى جهده عندما أتناول الغداء أو العشاء، وأجد أندر أنواع النبيذ في القبو تحت تصرفي.

لم أعرف يوماً من الأمن أو السلام منذ عدت إلى لندن، أرتجف عند استيقاظي خشية وقوف سميث على سريري، أشعر أن كل خطوة أخطوها تقربني من حافة الهاوية. علمت أن سميث نجا من مداهمة أهل البلدة ورجال الشرطة، وأصابني الإعياء عندما فكرت في احتمالية عودته إلى لندن، وأني قد أقابله، عندما أغادر منزلي كل صباح أنظر إلى الشارع، أخشى أن أرى الشخص المخيف ينتظرني، أتأخر في زوايا الشوارع، قلبي يخفق بشدة، أشعر بالغثيان عند التفكير في أن بضع خطوات سريعة قد تجمعنا، ولم أرتد المسارح أو قاعات الموسيقى خشية أن يجلس صدفة بجواري. أحياناً أضطر إلى الخروج ليلاً، وفي الساحات الهادئة تقلقني الظلال وأرتجف، وفي الشوارع المزدحمة أقول لنفسي: "لا بد أن يأتي عاجلاً أم آجلاً، سيعود بالتأكيد إلى المدينة، وسوف أراه عندما أشعر بأقصى درجات الأمان".

أقلب الصحف بحثاً عن أي تلميح أو إشارة إلى الخطر الوشيك، ولم أترك حرف صغير أو أي تقرير تافه إلا وقرأته، وأعيد النظر في أعمدة الإعلانات دون جدوى. مرت أشهر بلا مضايقات، لم أعد أشعر بالقلق والرعب، رغم إحساسي بعدم الأمان. كنت أسير بهدوء في شارع أكسفورد هذا المساء، رفعت عيني ونظرت إلى الجانب الآخر من الطريق، أخيراً رأيت الرجل الذي ظل يطارد أفكاري لفترة طويلة. أنهى السيد ويلكنز كأسه، اتكأ على كرسيه ينظر بحزن إلى دايسون، وفجأة كما لو أن فكرة خطرت بباله، أخرج من جيبه محفظة جلدية، وسلّمه قصاصة، ألقى دايسون نظرة فاحصة على الورقة، لاحظ أنها انتُزعت من أعمدة إحدى الصحف المسائية، وقرأ:

(إعدام جماعي، قصة مروعة

تنص برقية دالزيل من ريدنج (كولورادو) على أن الأخبار الواردة من بلو روك بارك تفيد بوقوع حالة مروعة من الانتقام الشعبي. لفترة من الزمن كانت المنطقة تعاني من جرائم عصابة من المجرمين يعملون تحت غطاء منظمة، ارتكبوا أبشع الفظائع ضد الرجال والنساء، وتم تشكيل لجنة مراقبة، تبين أن زعيم العصابة يُدعى سميث، يعيش في بلو روك بارك. تم

اتخاذ الإجراءات اللازمة، وخنق ستة من أسوأ أفراد العصابة دون محاكمة، أمام مئتي أو ثلاثمئة رجل وامرأة. ويقال إن سميث قد تمكن من الهرب).

قال دايسون: "إنها قصة مروعة، أصدق أن أيامك ولياليك مسكونة بمثل هذه المشاهد المرعبة التي وصفتها. ولكن لا داعي للخوف من سميث؟ بل هو من لديه أسباب أكثر ليخاف منك، فكر في الأمر، كل ما عليك فعله هو تقديم معلوماتك إلى الشرطة، وسيتم إصدار مذكرة اعتقاله على الفور. علاوة على ذلك، أود أن تعذرني على ما سأقوله".

قال السيد ويلكنز: "سيدي العزيز، آمل أن تتحدث معي بحرية تامة".

"حسناً، إذن، يجب أن أعترف بأن انطباعي أنك كنت محبطاً لعدم قدرتك على إيقاف الرجل قبل أن يغادر، وكنت منزعجاً لعدم قدرتك على عبور الشارع".

"سيدي، لم أكن أشعر بنفسي، ودام ذلك للحظة فقط، أما بعد ذلك فما شاهدته كان عذاب الانتظار، لم أكن متأكداً أنه هو، غمرتني فكرة مرعبة أن سميث في لندن مرة أخرى، ارتعدت عند تخيل هذا الشيطان، روحه سوداء بسبب جرائمه المروعة، ويختلط بالحشود البريئة، ربما يخطط لدورة جديدة من الفظائع أكثر رعباً. أقول لك سيدي، إنه كائن فظيع يتجول في الشوارع، كائن يجب أن يتحول ضوء الشمس أمامه إلى ظلام، ويصبح هواء الصيف بارداً ورطباً، هذه الأفكار انقضت عليّ بقوة إعصار ففقدت حواسي".

"أتفهم مشاعرك بعض الشيء، لكني أؤكد لك أنه ليس لديك ما تخشاه حقاً، ولن يضايقك سميث بأي شكل من الأشكال، يجب أن تتذكر أنه تلقى تحذيراً، ومن نظرتي الخاطفة حين رأيته بدا خائفاً، الوقت تأخر، سأغادر إذا سمحت لي يا سيد ويلكنز، وقد نلتقي هنا كثيراً".

ابتعد دايسون بذكاء، وهو يتأمل القصة الغريبة التي جلبتها الصدفة، ولاحظ بعد تفكير هادئ أن هناك شيئاً غريباً في أسلوب السيد ويلكنز، ولا يمكن تفسيره رغم التجارب الكثيرة.

مغامرة الأخ المفقود

ألمح البعض أن السيد تشارلز فيليبس رجل نبيل ذو ميول علمية، كرس نفسه لدراسة علم الأحياء في أيامه الأولى، وكانت دراسته القصيرة عن "علم الأجنة المجهرية للهولوثوريا[3]"، أول مساهمة له في الأدب. وبعدها خف اهتمامه، وانغمس في مواضيع أكثر تسلية مثل علم الحفريات وعلم الأعراق. لديه خزانة في غرفة جلوسه، مليئة بأدوات حجرية بدائية، وتميمة ساحرة من جزر الجنوب، شكلت العنصر الرئيسي في مجموعته، يطلق على نفسه لقب المادي، ولكنه من أكثر الرجال سذاجة، ما إن تغلف الأساطير بعباءة العلم يصدقها، كانت أكثر الأحلام جنوناً تأخذ عنده شكلاً ملموساً لطالما كانت المصطلحات المستخدمة علمية ورصينة. يضحك من الساحرات ويرتعد أمام المنوم المغناطيسي، يرفع حاجبيه عند ذكر المسيحية ولكنه يعبد فرضية أن جميع العناصر الكيميائية قد صنعت من جسيمات دون ذرة.

يفتخر بشكوكه التي لا حدود لها، يسمع القصص العجائبية بازدراء، ولم يكن ليصدق كلمة واحدة من قصة دايسون عن المطاردة إلا عندما تم تقديم العملة الذهبية كدليل ملموس. راوده شك أن دايسون خدعه، إذ أنه يعرف خيالات صديقه المضطربة، وعادته في اختلاق الغرائب لتفسير الأمور العادية. ومال إلى أن ما سمي "حقائق" في المغامرة الغريبة قد تم تشويهها بجدية أثناء السرد. ثم زار دايسون وألقى عليه محاضرة عن ضرورة الملاحظة الدقيقة، وشبه ذلك بحماقة استخدام "المنظار الملون" بدلاً من التلسكوب في رؤية الأشياء، يبتسم صديقه بسخرية وهو يستمع له، وقال دايسون: "يا صديقي العزيز، أفهم وجهة نظرك، ستندهش حين تعلم أني أعتبرك أنت الشخص الحالم، وأنا أنظر للحياة بواقعية ورصانة، لقد دارت بك الدائرة، تتخيل نفسك في أرض فلسفات جديدة ذهبية، بينما تعيش في مزرعة قديمة مجازية، هزمت شكوكك نفسها، وأصبحت سذاجة وتصديقاً مفرطاً، وأنت كالخفاش أو البومة –لا أتذكر أيهما، الذي أنكر وجود الشمس في وضح النهار، وسأندهش إذا لم تأتني يوماً نادماً على أخطائك الفكرية الكثيرة، وتقرر بتواضع أن ترى الأمور من زاوية أخرى في المستقبل".

لم يؤثر هذا الكلام على السيد فيليبس بعدما يئس من دايسون. عاد إلى منزله ليعاين أدوات حجرية بدائية أرسلها له صديق من الهند، رأتها صاحبته على طاولة في المنزل فرمتها في سلة المهملات، رائحتها منتنة، سمعته السيدة براون وهو يتحدث عن هذه الأحجار كسكاكين قيّمة، وسمعها وهي تتمتم: "السيد فيليبس المسكين".

وبين غضب وروائح كريهة قضى فترة ظهيرة بائسة. بحلول الساعة الرابعة أنقذ مجموعته، التي تفوح منها روائح أوراق الملفوف المتعفنة، قرر أن يتمشى ليفتح شهيته لوجبة العشاء. يمشي فيليبس بسرعة على دايسون، عينه على الرصيف، منغمس في أفكاره غافل عما حوله، رفع عينيه ووجد نفسه في ساحة ليستر، أعجبه العشب والزهور، فكر أن يرتاح لدقائق، فاختار كرسياً تشغل سيدة أحد طرفيه، استعرض أحداث فترة الظهيرة وهو يشعر بالغضب. عندما اقترب وجدها شابة أنيقة، لم يستطع رؤية وجهها، حيث كانت تشيح بوجهها إلى الجهة الأخرى تتأمل الشجيرات وتضع يدها على وجهها. لم يختر السيد فيليبس هذا المقعد رغبة في علاقة عاطفية، ببساطة فضله على مقعد آخر يشغله خمسة أطفال قذرون.

انغمس في التفكير في مصائبه بمجرد جلوسه، فكر في تغيير مسكنه؛ وبعد أن هدأ غير رأيه، قرر أن يتحدث بصرامة إلى السيدة براون، ويشير إلى بعض السلوكيات التي لا تعجبه، وأمله في أن تغيرها. كان على وشك النهوض بعد أن اتخذ قراره، ولكنه سمع نشيجاً مكتوماً من السيدة التي استمرت تتأمل الشجيرات، أمسك عصاه وود أن يبتعد، فالتفتت السيدة نحوه، عينها لامعة بلون البندق تحمل حزناً وتتوسل إليه، كانت شابة بوجه غريب وجذاب أكثر من كونه جميلاً، كانت في أشد حالات الضيق، لعن السيد فيليبس حظه. لم يلمح أثراً للدموع في عينيها رغم وجود منديل في يدها، عضت شفتها، تقاوم الحزن، شعر أنها تتوسل وتلتمس شيئاً منه، نظر إليها محرجاً، يتساءل عما سيحدث بعد ذلك بينما هي تنظر إليه دون أن تتحدث، فقال: "سيدتي، أشعر أنك ترغبين في التحدث معي، هل هناك شيء يمكنني فعله لأجلك؟ رغم أني

أستبعد أن أفعل شيء لك".

قالت بصوت خفيض: "آه، سيدي، لا تتحدث معي بقسوة، أنا في مأزق صعب، وظننت ما أن رأيت وجهك أني أستطيع أن أطلب تعاطفك بأمان، إن لم يكن مساعدتك".

قال فيليبس: "هل يمكنك أن تخبريني بما يحدث؟ ربما ترغبين في تناول بعض الشاي؟".

"كنت أعلم أني لم أخطئ في توقعي، عرضك بتناول الشاي يدل على طيبتك، ولكن للأسف، ليس بمقدور الشاي مواساتي، إذا سمحت لي، سأحاول شرح مشكلتي".

"سأكون سعيداً لو فعلتِ ذلك".

"سأفعل، وسأختصر القصة رغم تعقيداتها التي جعلتني – رغم صغر سني، أرتعد أمام ما يبدو لغز الوجود، عميقاً ومرعباً، ومع أن الحزن الذي يمزق روحي الآن بسيط للغاية، لقد فقدت أخي".

"فقدتِ أخاك! كيف حدث هذا؟".

"يبدو أني سأزعجك بالتفاصيل، أخي يكبرني بعدة سنوات، يدرس في مدرسة خاصة في أقصى شمال لندن. حرمه نقص الموارد من مزايا التعليم الجامعي، وبدون شهادة لم يأمل في الحصول على منصب تؤهله له مواهبه، فقبل وظيفة مدرس اللغة الكلاسيكية في أكاديمية الدكتور ساندرسون في هايجيت لأبناء السادة. أدى واجباته لسنوات وكان مديره راضياً عنه، لا داعي لإزعاجك بتاريخي، يكفي أن أخبرك أني كنت مربية في الشهر الماضي لعائلة تقيم في توتنج. نكنّ أنا وأخي لبعضنا المودة رغم ظروف لا داعي للخوض فيها أبقتنا منفصلين لفترة، إلا أننا لم نرَ بعضنا البعض. اتفقنا على أنه ما لم يكن أحدنا غير قادر على النهوض من فراش المرض، فلن يمر أسبوع دون لقاء، واخترنا هذه الساحة كمكان للقاء؛ لموقعها المركزي وسهولة الوصول إليها. كان أخي – بعد أسبوع من العمل الشاق– يرغب في المشي، وكنا نقضي ساعتين أو ثلاث ساعات على هذا المقعد، نتحدث عن آفاقنا وعن أيامنا السعيدة عندما كنا أطفالاً. في أوائل الربيع، كان الجو بارداً، ومع ذلك كنا نستمتع بالاستراحة القصيرة، وكثيراً ما ظنوا أننا عاشقان؛ لأننا نجلس متقاربين ونتحدث بلهفة. نلتقي كل سبت، رغم أنه في إحدى المرات نصحه الطبيب بإلغاء الموعد لإصابته بالإنفلونزا ولم يفعل.

السبت الماضي قضينا فترة طويلة وسعيدة ما بعد الظهر ، افترقنا أكثر بهجة من المعتاد، قررنا أن يكون لقاؤنا التالي أكثر متعة، وصلت في الموعد المتفق عليه، الساعة الرابعة، جلست أترقب وصول أخي، أنظر إلى البوابة التي في الجانب الشمالي من الساحة، مرت خمس دقائق ولم يظهر، اعتقدت أن القطار فاته، تضايقت لأنه سيقتطع من مقابلتنا وقتاً يقدر بعشرين دقيقة أو نصف ساعة، أملت أن نقضي أوقاتاً سعيدة، وفجأة التفت بدافع لم أعرف سببه، لا أستطيع أن أصف لك دهشتي، يتجه أخي إليّ من الجانب الجنوبي للساحة وبرفقته شخص آخر، شعرت بالاستياء، لأن هذا الرجل سيتطفل على لقائنا، أتساءل من يكون، حيث لم يكن لأخي أصدقاء مقربون، وبينما كنت أنظر إليهما استولى عليّ شعور بالخوف؛ مثل خوف الطفل في الظلام، غير منطقي وغير مبرر، لكنه مرعب، يمسك قلبي بقبضة باردة من يد رجل ميت. تغلبت على الشعور، ونظرت بثبات إلى أخي، أنتظره أن يتحدث، تمعنت في رفيقه. رأيت الرجل يقود أخي بدلاً من المشي معه، كان رجلاً طويلاً يرتدي ملابس عادية، على رأسه قبعة عالية، ومعطف أسود عادي بأزرار محكمة رغم دفء النهاء، سرواله مخطط بالأسود والرمادي، وجهه عادي، ولا أستطيع تذكر أية ملامح خاصة أو تعبير معين، غريب أن وجهه لم يترك أي انطباع عليّ، وكأنني رأيت قناعاً مصنوعاً جيداً.

مروا أمامي، ولدهشتي التي لا توصف سمعت أخي يتحدث إليّ رغم أن شفتيه لم تتحركا ولا عينيه نظرتا ناحيتي، كان صوتاً لا أستطيع وصفه رغم أني أعرفه، وصلت الكلمات إلى أذني وكأنها مختلطة برذاذ الماء، وصوت جدول ضحل يتدفق بين الحجارة، قال: "لا أستطيع البقاء".

لحظة بدت فيها السماوات والأرض تندفعان معاً بدوي مرعد، واندفعت من العالم إلى فراغ أسود بلا بداية ولا نهاية، فاليد التي كانت تمسك بذراع أخي أرعبتني، لأنها كانت أشبه بيد تحللت منذ سنوات عديدة في قبر. اللحم قطع إلى شرائح جافة ومفتتة، وتعلق بالعظم، والأصابع التي تحيط بذراع أخي أشبه بالمخالب، أحدها كجذع تآكل طرفه. استعدت وعيي، رأيتهما يخرجان من البوابة. توقفت للحظة، اندفعت نار إلى قلبي، أدركت أنه لا يمكن للخوف أن يمنعني من إنقاذ أخي، ولو ثار الجحيم ضدي، ركضت للخارج ونظرت إلى الرصيف، رأيتهما يسيران وسط الحشد. ركضت، اتجها إلى شارع جانبي، وصلت بعد لحظة. أنظر إلى اليمين واليسار دون جدوى، فلم أرَ غير مسنين يسيران وينزلان متشابكي الأذرع، وصبي التلغراف يمشي بخطى واثقة ويصفر. بقيت مذهولة، ثم أطرقت برأسي وعدت إلى هذا المقعد الذي وجدتني فيه، والآن يا سيدي، هل تتعجب من حزني؟ أوه، أخبرني ماذا حدث لأخي، وإلا سأجن".

بصبر استمع السيد فيليبس، للقصة، تردد لحظة قبل أن يتحدث: "عزيزتي السيدة، لقد عرفتِ كيف تجذبينني لخدمتك، ليس كرجل فقط ولكن كطالب علم، كإنسان، أتعاطف معكِ، لا بد أنك عانيت كثيراً مما رأيت، أو بالأحرى مما تخيلت أنك رأيتِه، وكرجل علم، من واجبي أن أخبرك بالحقيقة الواضحة، ستواسيكِ لكونها صحيحة، هلّا وصفتِ لي أخاك".

قالت السيدة بلهفة: "يمكنني وصفه بدقة، يبدو شاباً، شاحباً، شواربه سوداء صغيرة ويرتدي نظارة، خجول، يكاد يكون خائفاً، ينظر حوله بعصبية. فكّر! يجب أن تكون قد رأيته، ربما كنت من رواد هذا الحي الجذاب، أو قابلته في سبت سابق، قد يكون اعتقادي بأنه انعطف إلى ذلك الشارع الجانبي خاطئاً، ربما استمر في طريقه ومررتما ببعضكما، أوه، أخبرني، سيدي، هل رأيته؟"

قال فيليبس الذي لو مر بجانب والدته لم يلاحظها: "أنا لا أنتبه أثناء سيري، لكنني متأكد من أن وصفك مثير للإعجاب، والآن هل يمكنك أن تصفي الشخص الذي أمسك بذراع أخيك؟".

"لا أستطيع أفعل ذلك، وأخبرتك أن وجهه كان خالياً من التعابير والملامح البارزة، كان أشبه بقناع".

"بالضبط؛ لا يمكنكِ وصف شيء لم تريه، ولا حاجة لي لتوضيح النتيجة التي يجب فهمها، كنت ضحية أوهام وهلوسات، توقعتِ رؤية أخيك، وقلقت لعدم حضوره، وبدون وعي منك بدأ عقلك يعمل، وما رأيتِه إسقاط لأفكارك المرضية، رؤية أخيك الغائب، ومزيج المخاوف تجسد في صورة لا يمكنك وصفها، وبالتأكيد هناك سبب منع أخاكِ من الحضور كالمعتاد، أتوقع أن تسمعي منه خلال يوم أو يومين".

تنظر إليه بجمود، وفي لحظة ومضت عيناها بالبهجة، لكن الحزن اكتسى وجهها بعد سماع الاستنتاجات الحاسمة التي توصل إليها العالم بعقلانية، وقالت: "آه، أنت لا تعرف، لا أشك في حواسي فهي يقظة، بالإضافة إلى ذلك فقد مررت بتجارب أكثر رعباً، أقر بقوة حججك، ولكن للمرأة لديها حدس لا يخدعها أبداً، صدقني، لست في حالة هستيرية، تحسس نبضي، إنه منتظم تماماً".

مدت يدها برقة، ونظرة أثارت فيليبس رغماً عنه، يدها الممدودة إليه ناعمة بيضاء ودافئة، وضع أصابعه على الوريد الأرجواني شعر بالارتباك، وتأثر بمشهد الحب والحزن أمامه، وبعد أن ترك معصمها، قال: "كما تقولين، من الواضح أن حالتكِ طبيعية، ومع ذلك يجب أن تدركي أنه ليست للأحياء أيادٍ ميتة، ربما رأيت أخاك مع رجل آخر وكان مشغولاً بشيء منعه من التوقف، وبشأن اليد الغريبة فقد تكون مشوهة أو بها إصبع مقطوع أو شيء من هذا القبيل".

هزت السيدة رأسها بحزن، وقالت: "أرى أنك عقلاني متشدد، ألم تسمعني أقول إني مررت بتجارب أكثر رعباً؟ لقد كنت متشككة مثلك في السابق، ولكن بعد ما عرفته لم يعد بوسعي التظاهر بالشك".

أجاب السيد فيليبس: "سيدتي، لن يستطيع أحد ما أن يجعلني أنكر معتقداتي، لن أصدقك ولن أتظاهر بذلك، لن أعترف بأمور لا تخضع للمنطق والحساب".

ردت السيدة: "أنت متسرع، سأسألك، هل سمعت من قبل باسم البروفيسور جريج، خبير علم الأعراق والموضوعات المشابهة؟".

قال فيليبس: "ما فعلته كان أكثر من مجرد سماع أخبار البروفيسور جريج، أعده واحداً من أكثر المراقبين ذكاء وصرامة، وأدهشتني آخر منشوراته كتاب، "علم الأعراق النصي"، بدا لي كتاباً رائعاً، وصل الكتاب إلى يدي بعدما سمعت عن الحادث المروع الذي أنهى حياة جريج المهنية، أعتقد أنه استأجر منزلاً ريفياً في غرب إنجلترا لقضاء الصيف، ويُقال إنه سقط في نهر، أتذكر أنه لم يتم العثور على جثته".

"سيدي، أنا متأكدة أنك شخص حكيم، فحديثك يدل على ذلك، وعنوان الكتاب الصغير الذي ذكرته يؤكد لي أنك لست تافهاً، أشعر أني أستطيع الاعتماد عليك، تعتقد أن البروفيسور جريج قد مات، ولكن ليس لديّ سبب لأصدق ذلك".

صاح فيليبس مندهشاً ومضطرباً: "ماذا؟ أتلمحين إلى أن هناك شيئاً مشيناً؟ لا أصدق، فقد كانت سمعة جريج طيبة، وحياته الخاصة مليئة بالخير والإحسان، رغم أني لا أؤمن بالأوهام والماورائيات إلا أن البروفيسور كان مسيحياً مخلصاً تقياً، ولا أظنك تلمحين إلى أنه هرب من البلاد لأمور مشينة أو شيء سيء أجبره على ذلك".

ردت السيدة: "تسرعت مرة أخرى، لم أقل شيئاً مما ذكرته، ولكن عليّ أن أخبرك بأن البروفيسور جريج غادر منزله صباحاً وهو في كامل صحته العقلية والجسدية ولم يعد أبداً، وقد تم العثور علي ساعته وسلسلته، ومحفظته التي تحتوي ثلاثة جنيهات ذهبية وبعض الفضة، وخاتمه، بعد ثلاثة أيام على تل يبعد عدة أميال من النهر. وجدوها بجوار صخرة جيرية غريبة، ملفوفة بجلد خشن مربوط بأمعاء، فتح الجلد ووجدوا نقوشاً فيه مكتوبة بمادة حمراء، لم يستطيعوا فك الحروف، لكنها بدت كلغة مسمارية بائدة".

قال فيليبس: "أثرتِ اهتمامي، هلّا واصلتِ قصتك؟ ما ذكرتِه غامض للغاية، وأنا متعطش لتفسير".

بدت الشابة وكأنها تتأمل للحظة، ثم شرعت تسرد القصة.

رواية الختم الأسود

"عليّ أن أخبرك بتفاصيل حياتي، أنا ابنة مهندس مدني اسمه ستيفن لالي، توفي في بداية حياته المهنية قبل أن يتمكن من جمع ما يكفي من المال لإعالة زوجته وطفليها. تمكنت والدتي من تدبير أمور المنزل بموارد صغيرة جداً، عشنا في قرية نائية حيث ضروريات الحياة أرخص من المدينة، ومع ذلك عشنا في ظروف قاسية.

كان والدي رجلاً ذكياً مثقفاً، ترك وراءه مجموعة صغيرة مختارة من الكتب، تحوي أفضل الكلاسيكيات اليونانية واللاتينية والإنجليزية، وكانت هذه الكتب هي المتعة الوحيدة التي نملكها. تعلم أخي اللاتينية من كتاب "تأملات ديكارت"، أما أنا فبدلاً من القصص الصغيرة التي عادة ما يقرؤها الأطفال، لم يكن لدي شيء أكثر سحراً من ترجمة كتاب "جيستا رومانوروم[4]". نشأنا أطفالاً هادئين ومجتهدين، وبمرور الوقت تمكن أخي من إعالة نفسه بالطريقة التي ذكرتها. واصلت العيش في المنزل، أصيبت والدتي المسكينة بمرض، وكانت تحتاج لرعاية مستمرة، توفقت منذ عامين بعد معاناة مع المرض، كان وضعي مروعاً، الأثاث متهالك بالكاد يكفي سداد الديون، وكنت قد أرسلت الكتب لأخي لشغفه بالاطّلاع!

كنت وحيدة، وأدرك ضآلة الأجر الذي يتسلمه أخي، فأتيت إلى لندن آملة أن أعثر على عمل، واتفقنا أن يتحمل نفقاتي، وأقسمت أن يكون ذلك لمدة شهر واحد، وإذا لم أتمكن من العثور على عمل فسأفضل الموت جوعاً بدلاً من حرمانه من الجنيهات القليلة البائسة التي يدخرها. استأجرت غرفة صغيرة في ضاحية بعيدة، أرخص غرفة عثرت عليها، وعشت على الخبز والشاي، أقضي وقتي في الرد على الإعلانات التجارية دون جدوى، وسيري الأكثر عبثاً إلى العناوين التي دونتها. تتابعت الأيام والأسابيع، ولم أوفق، اقترب الموعد الذي حددته لنفسي، ورأيت احتمالاً قائماً أمامي بالموت البطيء جوعاً. صاحبة المنزل طيبة القلب؛ تعلم ضعف إمكانياتي المادية، وكنت متأكدة من أنها لن تطردني من المنزل، فقررت أن أغادر، اخترت الرحيل للموت في مكان هادئ.

كنا في الشتاء، أتذكر أنه كان يوم أحد، وكان أهل المنزل في الكنيسة، تسللت من المنزل في حوالي الساعة الثالثة وابتعدت قدر ما أستطيع، فقد كنت ضعيفة من قلة الطعام، لف الضباب الأبيض الشوارع، وتجمع الصقيع على أغصان الأشجار العارية وتلألأت بلوراته على الأسوار الخشبية، وعلى الأرض القاسية الباردة تحت قدمي. مشيت لا ألوي على شيء، لم أهتم لأسماء الشوارع، وما أتذكره من ذلك اليوم كشظايا مكسورة من كابوس، رؤية مشوشة، سرت في طريق بأحد جانبيها حقول رمادية تذوب في الضباب، وفي الجانب الآخر فيلات كبيرة أرى وهج المواقد من نوافذها، كان كل شيء حولي كالوهم، الجدران، النوافذ، الأشجار، الريف، مصابيح الغاز، خطوط السكة الحديدية تحت الجسور العالية، ألوان إشارات المرور، خطوات سريعة، رجال يرتدون ملابس شتوية، ستائر مسدلة خلف الزجاج المتجمد، صور عابرة تومض في دماغي المتعب وحواسي التي خدرها الجوع.

حل الظلام مبكراً، وحدي، صمت أبيض، شوارع خالية، أدركت أني سأموت بعد أن أصابني الإعياء، انعطفت عند إحدى الزوايا، رجل يقف تحت عمود الإنارة سألني عن الطريق إلى آفون، وما أن سمعت صوتاً بشرياً حتى انهارت قواي، وسقطت على الرصيف أبكي وأضحك في نوبة هستيرية عنيفة. كنت قد خرجت مستعدة للموت، ودعت كل آمالي وذكرياتي عندما أغلقت الباب خلفي، وعندما خاطبني ذلك الصوت، كما لو أنني كنت ميتة وعدت إلى الحياة. خلال بضعة دقائق، تمكنت من تهدئة مشاعري، نهضت، أمامي رجل في منتصف العمر ذو مظهر جذاب، يرتدي ملابس أنيقة، ينظر إليّ بشفقة، بلعثمة أردت أن أقول له أني تائهة، فبادر: "سيدتي العزيزة، يبدو أنك تعانين من ضيق شديد، خفت عليكِ كثيراً، هل يمكنني أن أسأل عن مشكلتك؟ يمكنكِ أن تثقي بي".

أجبته: "أنت لطيف للغاية، لكني أخشى ألا يكون هناك ما يمكن فعله، يبدو أنّ وضعي ميؤوس منه".

قال: "أوه، هذا هراء! أنت صغيرة جداً على أن تتحدثي هكذا، تعالي، دعينا نمشي، ويمكنك أن تخبريني بمشكلتك، فقد ربما أتمكن من مساعدتك".

أسلوبه مقنع ومهدئ، سرنا معاً، لخصت قصتي له، وأخبرته عن اليأس الذي كاد يدفعني للموت، وما أن انتهيت، قال: "أخطأتِ عندما استسلمت، والشهر مدة قصيرة لتجدي طريقك في لندن، يا آنسة لالي، إن لندن ليست مكاناً مفتوحاً، إنها مكان محصن مليء بالخنادق والحواجز المعقدة، وفي المدن الكبيرة تصبح الحياة مصطنعة، وليست عبارة عن سياج بسيط يمكن للمرء أن يتجاوزه، ولكنها خطوط متشابكة من الحيل الخفية والألغاز والمصائد تتطلب مهارة غريبة للتغلب عليها. ولبساطتكِ ظننت أنه ليس عليك سوى الصراخ حتى تسقط هذه الجدران، لكن هذا الزمن قد ولى، تحلي بالشجاعة، وستتعلمين سر النجاح قريباً جداً".

أجبته: "لا أشك فيما قلته يا سيدي، ولكني في الوقت الحالي على وشك الموت جوعاً، وما سر النجاح؟ أعلمني به إذا كنت تشفق عليّ".

ضحك،: "هنا تكمن غرابة الأمر، الذين يعرفون السر لا يمكنهم إفشاؤه، ولو أرادوا، إنه أمر لا يمكن وصفه، مثل العقيدة المركزية الماسونية، ولكنكِ اخترقت القشرة الخارجية للسر".

عاد يضحك، فقلت: "أرجوك لا تمزح معي، ما الذي فعلته لكشف السر؟ أنا جاهلة لدرجة أني لا أملك فكرة عن كيفية توفير وجبتي القادمة".

"عفواً، أتسأليني ماذا فعلتِ؟ لقد قابلتيني، تعالي، لن نستمر في المناورات، أرى أن قدرتك في التعليم الذاتي كبيرة، وهو التعليم الذي لا يضر، وأنا بحاجة إلى مربية لطفليّ، إني أرمل منذ عدة سنوات، اسمي جريج. أعرض عليك الوظيفة التي ذكرتها براتب قدره مائة جنيه في السنة؟".

تلعثمت وغمغمت بالشكر، ومد لي يده بورقة فيها عنوانه ومبلغ نقدي كعربون، ودعني، على أمل أن أزوره خلال يومين. هكذا تعرفت بالبروفيسور جريج. وهل يمكن لومي إذا كانت ذكرى اليأس والرياح الباردة من بوابات الموت جعلتني أعتبره أباً ثانياً ؟ استملت مهامي قبل نهاية الأسبوع, يسكن البروفيسور في قصر قديم من الطوب الأحمر مستأجر في إحدى ضواحي لندن الغربية، القصر محاط بمروج جميلة وبساتين، هادئاً إلا من هسهسة أشجار الدردار العتيقة التي تهتز أغصانها فوق السقف. وبذلك بدأ فصل جديد من حياتي، وبمعرفتك طبيعة عمل البروفيسور، فلن تفاجأ عندما تسمع أن المنزل يعج بالكتب، وخزائنه مليئة بأشياء غريبة وحتى بشعة، كانت تملأ كل زاوية في الغرف.

كان جريج لا يفكر إلا بالمعرفة، فتشربت حماسته، وسعيت أن أشاركه في شغفه بالبحث، في غضون بضعة أشهر أصبحت سكرتيرته أكثر من كوني مربية لطفليه، أجلس ليلاً على المكتب تحت ضوء المصباح، بينما هو يتجول في الغرفة تحت وهج النور، يملي عليّ كتابه "علم الأعراق النصي". وسط هذا الجو العلمي كنت ألمس أموراً مخفية، شوق ورغبة في شيء لم يلمح إليه، أحياناً يتوقف عما يقوله ويستغرق في التفكير، وكأنه مفتون بآفاق بعيدة لاكتشافات مغامرة. انتهى الكتاب، بدأنا نتلقى المسودات من المطابع، عُهِد إليّ بقراءتها، ثم خضعت للمراجعة النهائية من قبله. أرهقه العمل، سلمني نسخة من الكتاب ببهجة تلميذ انتهى فصله الدراسي في المدرسة، وقال: "حسناً، وفيت وعدي بكتابته وانتهى الأمر، الآن سأكون حراً من أجل الأشياء الغريبة؛ أعترف لكِ يا آنسة لالي، أطمع في شهرة كولومبوس، أتمنى أن تريني ألعب دور المستكشف".

قلت: "بالتأكيد، فلم يبقَ الكثير لاستكشافه، لقد ولدت بعد قرون من الزمن المناسب لك".

أجابني: "أنتِ مخطئة، فمازالت هناك بلدان غريبة وقارات غامضة، صدقيني آنسة لالي، نحن نقف وسط أسرار وطقوس مليئة بالرهبة، وما زال الغموض يحيطنا، الحياة ليست شيئاً بسيطاً، ليست مجرد كتلة من المادة الرمادية وشبكة من الأوردة والعضلات التي يمكن للجراح كشفها، الإنسان هو السر الذي أنوي استكشافه، وقبل أن أتمكن من ذلك عليّ أن أعبر بحاراً مضطربة ومحيطات وضباباً لآلاف السنين، هل تعرفين أسطورة أطلنطس المفقودة؟ ماذا لو كانت حقيقية، وتمكنت من اكتشافها؟".

لمست الإثارة في كلماته، في وجهه شغف صياد، يعتقد نفسه مدعوّاً لخوض معركة ضد المجهول، سعدت لأني سأكون معه في مغامرته ومطارداته، ولم أفكر في الذي سنكشفه. صباحاً اصطحبني البروفيسور جريج إلى مكتبه، على طول الجدار أدراج صغيرة مرتبة، وكل درج مُسمّى بعناية، ونتائج سنوات من العمل الشاق مُصنفة في مساحة صغيرة، وقال: هنا حياتي؛ وكل الحقائق التي جمعتها بعناء، ومع ذلك فهي لا شيء مقارنة بما أنوي القيام به، انظري هنا".

وأخذني إلى زاوية فيها خزانة قديمة غريبة وباهتة، فتحها، وأشار إلى أحد الأدراج: "قصاصات ورق، حجر أسود عليه شروح غريبة وعلامات وخدوش، وهناك مظروف قديم بختم أحمر داكن يعود إلى عشرين عاماً مضت، لكنني كتبت بضعة أسطر بالقلم الرصاص على ظهره، وهنا ورقة من مخطوطة، وقصاصات من مجلات صحف غامضة. وإذا سألتني عن موضوع المجموعة، فلن يبدو الأمر غريباً، اختفت خادمة في مزرعة، ولم يسمع عنها شيء، وطفل يُعتقد أنه سقط في أحد المناجم القديمة في الجبال، وكتابات غريبة على حجر جيري، ورجل قُتل بسلاح غريب. هذه الأدلة التي لديّ، وكما تقولين هناك تفسير جاهز لكل هذا، ربما هربت الفتاة إلى لندن، أو ليفربول، أو نيويورك؛ ربما يكون الطفل في قاع المنجم المهجور؛ وقد تكون الكتابات خربشات عابثة لمتشردين، نعم، أعترف بكل ذلك؛ ولكني أعلم أنني أحمل المفتاح الحقيقي. انظري!".

لي ورقة صفراء، وقرأت: (حروف وجدت منقوشة على حجر جيري في تلال غراي)، ثم كانت هناك كلمة ممحوّة، يُفترض أنها اسم مقاطعة، وتاريخ يعود إلى حوالي خمسة عشر عاماً مضت، تحتها حروف غريبة مثل الأبجدية العبرية، كانت أشبه بالإسفين أو الخناجر. وقال البروفيسور جريج: "والآن، الختم".

ثم ناولني الحجر الأسود، طوله حوالي بوصتين، يشبه سدادة التبغ القديمة، ولكن بحجم أكبر، رفعته إلى الضوء، ودهشت لأن الحروف الموجودة على الورقة تتكرر على الختم، وقال البروفيسور: "نعم، إنها نفسها، والعلامات الموجودة على الحجر الجيري منقوشة منذ خمسة عشر عاماً بمادة حمراء، والحروف التي على الختم عمرها أربعة آلاف عام على الأقل أو أكثر".

سألته: "هل هي خدعة؟".

فأجابني: "لا، وإلا لن أكرس وقتي لموضوع غير مهم، اختبرت الأمر بعناية، ولا يعرف أمر الختم الأسود إلا شخص واحد غيري، وهناك أسباب أخرى لا يمكنني الخوض فيها الآن".

"وما معنى كل هذا؟ لا أفهم إلى أية نتيجة تقودنا هذه الأمور".

"عزيزتي الآنسة لالي، أفضل أن أترك سؤالك دون إجابة لبعض الوقت، وربما لن أتمكن أبداً من كشف أسرار الختم، بعض تلميحات غامضة، وخطوط لمآسي قرية، وعلامات مرسومة بطين أحمر على صخرة، وختم قديم. مجموعة غريبة من البيانات لا أدري إن كان يمكن الاعتماد عليها، نصف دزينة من الأدلة، وعشرون عاماً قبل أن نتمكن من جمع هذا معاً، ومن يعلم ما قد يكون وراء كل هذا؟ أنظر عبر مياه عميقة، والأرض التي وراءها قد تكون مجرد ضباب في النهاية. ولكنني ما زلت أعتقد أن الأمر ليس كذلك، وبضعة أشهر ستكشف إن كنت على حق أو مخطئاً".

تركني وحيدة أحاول فهم اللغز، أتساءل إلى أي هدف يمكن أن تقودنا مثل هذه الأدلة الغريبة المتناثرة، أحترم صرامة البروفيسور العلمية، ولكني كنت أحب الخيال، ولم أرَ في الدرج سوى مواد للخيال، حاولت عبثاً أن أتصور أي نظرية يمكن أن تؤسس على الشظايا التي أمامي. في الواقع، لم أستطع أن أكتشف فيما سمعته ورأيته سوى الفصل الأول من رواية خيالية مفرطة، ومع ذلك كنت أشعر بالفضول، ويوماً بعد يوم كنت أنظر بلهفة إلى وجه البروفيسور جريج بحثاً عن أي تلميح لما سيحدث. وفي أحد الأمسيات بعد العشاء جاءت الكلمة: "أتمنى أن تتمكني من إتمام استعداداتك، سنغادر خلال أسبوع".

اندهشت: "حقاً! إلى أين نحن ذاهبون؟".

أجابني: "استأجرت منزلاً ريفياً في غرب إنجلترا، ليس بعيداً عن كيرماين، وهي بلدة صغيرة هادئة، كانت ذات يوم مدينة

ومقراً لفيلق روماني. المكان ممل جداً، ولكن الريف جميل وهواءه نقي".

لاحظت بريقاً في عينيه، وخمنت أن هذه الحركة المفاجئة لها علاقة بمحادثتنا قبل بضعة أيام، وقال البروفيسور جريج: "سأحمل معي بضعة كتب فقط، وكل شيء سيبقى هنا حتى عودتنا، لقد حصلت على إجازة"، وتابع مبتسماً: "ولن أكون آسفاً على ترك عظامي القديمة وحجارتي وقمامتي لفترة من الوقت. هل تعلمين"، تابع: "لقد كنت أعمل بجد لجمع الحقائق لمدة ثلاثين عاماً، وحان وقت الخيال".

مرت الأيام بسرعة، وكنت أرى البروفيسور يرتجف من شدة الإثارة المكبوتة، وبالكاد كنت أصدق نظراته المتلهفة بينما كنا نغادر القصر القديم خلفنا ونبدأ رحلتنا. انطلقنا في منتصف النهار، وفي شفق المساء وصلنا إلى محطة ريفية صغيرة، كنت متعبة ومتحمسة، والرحلة عبر الطرق والأزقة أشبه بحلم. شوارع مهجورة في قرية منسية، يتحدث البروفيسور جريج عن فيلق روماني واشتباك بالأسلحة، وعن البهاء الذي يتبع النسر الروماني. ثم رأينا نهراً عريضاً يعبر إلى أقصى مداه مع آخر وهج للشمس ويلمع خافتاً في المياه الصفراء، مروج واسعة، وحقول ذرة، وممر عميق يتعرج على منحدر بين التلال والمياه. ثم بدأنا في الصعود، أصبح الهواء نقياً، نظرت للأسفل، رأيت الضباب الأبيض النقي يتتبع خطوط النهر ككفن، وريفاً غامضاً مظلماً، وخيالات وتصورات لتلال ضخمة، وغابات معلقة، وخطوط نصف دائرية لتلال في الخلف، وفي البعد وهج نار على الجبل تتلاشى إلى نقطة حمراء باهتة، نصعد ببطء على طريق العربات، ثم ضربتنا نسمة هواء باردة تحمل رائحة الغابة الكبيرة فوقنا، بدا لي أنني أتجول في أعماقها، صوت الماء المتساقط، رائحة الأوراق الخضراء. توقفت العربة، بالكاد ميزت شكل المنزل وأنا أقف عند شرفة ذات الأعمدة، بقية المساء بدا كحلم غريب محاطاً بصمت عظيم للغابة والوادي والنهر.

استيقظت صباحاً، نظرت من النافذة، فرأيت تحت سماء رمادية ريف لا يزال غامضاً، ووادياً طويلاً جميلاً، ونهر أمتعرجاً، يقطعه جسر حجري مقبب من العصور الوسطى، وأرضاً مرتفعة خلفه وغابات وكأنها مسحورة رأيتُ ظلالها في الليلة السابقة، ونسمة هواء ناعمة تتنهد، نظرت عبر الوادي وما وراءه، تلال متتابعة كالموج، وعمود دخان أزرق باهت يرتفع في هواء الصباح من مدخنة مزرعة رمادية قديمة، وارتفاع صخري تعلوه أشجار صنوبر داكنة، ومن بعيد خط أبيض لطريق صاعد ثم يختفي في بلد لا يمكن تخيله. حدود كل ذلك سور عظيم من الجبال شاسع في الغرب، وينتهي كحصن بصعود حاد وتلة مقببة واضحة في السماء.

يذرع البروفيسور جريج الممر ذهاباً وإياباً، يظهر عليه أنه يستمتع بشعور الحرية، بعد أن ودع العمل الشاق لبعض الوقت، اقتربت منه، أشار إلى الوادي والنهر المتعرج وبابتهاج قال: "إنها بلدة جمالها غريب، وتبدو لي مليئة بالغموض، لن تنسي الدرج الذي أريتك إياه آنسة لالي، وتعلمين أني لم آتِ هنا للرحة فقط".

أجبته: "توقعت ذلك، ولكني لا أعرف طبيعة أبحاثك، وأما عن الصلة بين بحثك وهذا الوادي الرائع، فهو أمر يتجاوز توقعاتي".

ابتسم ابتسامة غريبة، وقال: "لا تظني أني أصنع الألغاز من أجل الغموض فقط، ولا أكلمك بصراحة لعدم وجود شيء مؤكد يمكن الاعتماد عليه والانطلاق منه لأكتب بعدها بحثاً مملاً وغير قابل للنقد. قبل سنوات عديدة، لفتت انتباهي فقرة عابرة في إحدى الصحف، ووحدت أفكاري المتشظية وخيالاتي غير المكتملة التي راودتني خلال ساعات طويلة من التأمل والتفكير في فرضية معينة. أدركت على الفور أنني أمشي على أرض هشة، وأن نظريتي خيالية للغاية، ولم أكن أفكر في كتابة أي شيء عنها للنشر، لكنني ظننت أنني بين رجال العلم أمثالي سأخاطر بحلمي، رغم أنهم يعرفون مسار الاكتشاف، ويدركون أن الضوء الذي يضيء الحانات كان يوماً ما مجرد فرضية جامحة؛ ظننت أن مع مثل هؤلاء الرجال يمكنني أن أخاطر بحلمي، فذكرت أطلانتس، وحجر الفلاسفة، أو ما شابه ذلك دون خوف من السخرية، فعرفت أني مخطئ في اعتقادي، فقد نظروا إلى بعضهم بوجوم، وكأنهم يشفقون عليّ، ثم تبدلت نظراتهم إلى الازدراء.

وفي اليوم التالي زارني أحدهم، ولمح إلى أني أعاني من الإرهاق العقلي والإجهاد، فقلت له بصراحة: "أتعتقد أني أصبت

بالجنون؟ أنا لا أعتقد ذلك".

طردته غاضباً، ومنها أقسمت ألا أشارك نظريتي مع أحد، ولم أعرض محتويات الدرج على غيرك، ربما أكون أتبع وهماً، أو ضللتني الصدف، ولكن بينما أقف هنا في هذا الصمت والهدوء الغامض وسط الغابات والتلال، فأنا على يقين أني على وشك الوصول إلى شيء ما، هيا لندخل".

شعرت بالإثارة، لأني أعرف أن البروفيسور جريج يختبر كل جزء، ولا يتقدم إلا بدليل لا يمكن دحضه، وما فهمته من نظراته والحماس من نبرة صوته أكثر مما استنتجته من كلماته، كان يرى شيئاً لا يصدق أمامه، وأنا التي أحب الخيال يراودني شيء من الشك لما يقوله، بدأت أسأل نفسي إن كان البروفيسور يعاني من الهوس، ويستبعد من هذا الموضوع المنهج العلمي الذي اتبعه في دراساته السابقة وحياته. رغم أن الوضع الغامض لم يبارح أفكاري إلا أنني استسلمت لسحر الريف، منطقة غريبة غير مأهولة، وأكثر غموضاً من قلب أفريقيا.

تفصلنا حقول شديدة الانحدار بين المنزل والغابة، يفرح الأطفال بالمشي خلفي عبر الممرات بين الأشجار الكثيفة، بين الجدران الناعمة من خشب الزان اللامع إلى أعلى نقطة في الغابة. حيث يمكن للمرء أن ينظر إلى النهر والتلال والجدار الجبلي العظيم غرباً، وفي الجهة الأخرى أشجار كثيفة فوق مروج مستوية وبحر أصفر لامع إلى الساحل. أجلس في هذا المكان على العشب الدافئ المضاء بأشعة الشمس التي تحدد مسار الطريق الرومانية، أطفال يلعبون ويبحثون عن التوت البري. هنا تحت السماء الزرقاء والسحب التي تسير مثل سفن قديمة بأشرعة منتفخة من البحر إلى التلال، أستمع إلى همسات الغابة العظيمة والعتيقة، عشت من أجل المتعة، لا أتذكر الأشياء الغريبة إلا عند عودتي إلى المنزل، وأرى البروفيسور جريج في غرفته الصغيرة التي جعلها مكتبه، أو يتمشى على الشرفة بنظرة صبورة ومتحمسة، نظرة الباحث المصمم.

بعد ثمانية أو تسعة أيام من وصولنا، نظرت صباحاً من نافذتي، رأيت مشهداً مختلفاً، السحب انخفضت وأخفت الجبل في الغرب، ريح جنوبية تدفع المطر إلى أعلى الوادي، يهدر الجدول الصغير أسفل المنزل كسيل أحمر، اضطررنا إلى البقاء في الداخل، جلست في الغرفة، مكتبة عتيقة، فحصت الأرفف من قبل مرة أو مرتين، لكن محتوياتها لم تلفت انتباهي، مجلدات من خطب القرن الثامن عشر، كتاب قديم عن البيطرة، مجموعة قصائد كتبها أشخاص من ذوي المكانة، كتاب "الارتباط" لبريدو، ومجلد غريب من البابا، وفي لحظة يأس، عدت أفحص أغلفة الكتب القديمة، وشعرت بالسعادة عندما وجدت مخطوطة قديمة جميلة طبعها ستيفاني، تحتوي على الكتب الثلاثة لـ"بومبونيوس ميلا"، و"دي سيتو أوربيس"، وأعمال أخرى لجغرافيين قدماء. أعرف من اللاتينية ما يمكنني من قراءة الجمل العادية، وسرعان ما انغمست في مزيج غريب من الحقيقة والخيال، ضوء يسلط على جزء صغير من العالم، وما وراء الضباب والظلال والأشكال المرعبة. وبينما كنت أتصفح الصفحات المطبوعة، لفت انتباهي عنوان فصل في كتاب "سولينوس"، وقرأت الكلمات التالية: (عجائب الشعوب التي تسكن المناطق الداخلية من ليبيا، والحجر الذي يطلق عليه الحجر الستين).

جذبني العنوان الغريب وواصلت القراءة: (يعيش هذا الشعب في أماكن نائية ومعزولة، ويقيمون طقوساً غامضة ومروعة في الجبال المرعبة، لا يشابهون البشر إلا في الشكل، تخلوا عن العادات الإنسانية، يكرهون إله النور. يصفرون بدل الكلام، أصواتهم غير متناغمة وتبعث على الرعب، يفتخرون بحجر معين يسمونه الحجر الستين، ويقولون إن هذا الحجر تظهر عليه ستين علامة، والاسم السري للحجر الذي يعبدونه هو: إيكسار).

ضحكت من غرابة ما قرأته، يشابه قصص "سندباد" وقصص "ألف ليلة وليلة"، بعد أيام رأيت البروفيسور جريج وأخبرته عما وجدته في خزانة الكتب، والهراء الخيالي الذي قرأته، اندهشت عندما وجدته ينظر إليّ باهتمام، وقال: "غريب، لم أفكر في البحث عن ذلك في كتب الجغرافيين القدماء، فاتني الكثير، آه، أهذا هو المقطع؟ لا أريد أن أحرمك من متعتك، ولكن عليّ أن آخذ الكتاب".

دعاني البروفيسور في اليوم التالي إلى مكتبه، وجدته يجلس على طاولة تحت ضوء النافذة الساطع يفحص شيئاً ما بعناية

شديدة باستخدام عدسة مكبرة، وقال: "آنسة لالي، لا أستطيع الرؤية جيداً، فهذه العدسة ليست بجودة العدسة التي في المنزل، هل تمانعين في فحصها بنفسك وإخباري بعدد الحروف المحفورة عليها؟".

ناولني الشيء الذي كان في يده، الختم الأسود الذي أراني إياه في لندن، خفق قلبي لفكرة أنني سأعرف شيئاً قريباً، بدأت أعد العلامات الغريبة الشبيهة بالخناجر، وبعد أن انتهيت قلت: "اثنان وستون".

"اثنان وستون؟ هذا هراء، مستحيل. آه، أرى ما فعلته، لقد حسبت هذه وهذه أيضاً"، وأشار إلى علامتين اعتبرتهما أحرفاً، وتابع البروفيسور جريج: "هذه الخدوش حدثت بالصدفة، لاحظت ذلك، حسناً، شكراً جزيلاً آنسة لالي".

كنت محبطة وعلى وشك المغادرة، لأنني استدعيت لعد علامات الختم الأسود فقط، عندها تذكرت شيئاً فصرخت: "ولكن يا بروفيسور جريج، الختم، إنه حجر الستين الذي كتب عنه سولينوس؛ إنه إيكسار".

قال: "أعتقد ذلك، أو ربما يكون الأمر مجرد مصادفة، لا يجب أن نكون متأكدين تماماً في هذه الأمور".

غادرت وأنا في حيرة، مازلت عاجزة عن العثور على خيط رئيسي ودليل قاطع في هذه المتاهة من الأدلة الغريبة، استمر الطقس السيء لثلاثة أيام، وتحول من المطر الغزير إلى الضباب الكثيف، وكأننا محبوسون في سحابة بيضاء حجبتنا عن العالم، لم يخرج البروفيسور من غرفته، في صباح اليوم الرابع أصبح الطقس جميلاً، قال البروفيسور عند الإفطار: "نحتاج لمن يساعدنا في تدبير أمور المنزل، صبي في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، فالأعمال الصغيرة تشغل وقت الخادمات، ويمكن لصبي القيام بها بشكل".

أجبت: "لم تشتكِ الفتيات أبداً، وقالت آن: إن العمل هنا أقل من لندن بسبب قلة الغبار".

"إنهن جيدات، وأعتقد أننا سنكون أفضل حالاً مع صبي، في الواقع هذا ما أقلقني خلال اليومين الماضيين".

اندهشت مما قاله لأن البروفيسور لم يكن يهتم بشؤون المنزل، وقال: "نعم، من الطقس، لم أكن أستطيع الخروج في هذا الضباب الأسكتلندي، فأنا لا أعرف الريف جيداً، وكنت سأضيع الطريق، سأحضر الصبي هذا الصباح".

"وكيف ستجد صبياً بمثل المواصفات التي تريدها؟".

"لدي يقين بذلك، قد أضطر للمشي ميلاً أو اثنين على الأكثر، لكنني متأكد من أنني سأجده".

ظننته يمازحني، ولكن نبرته كانت جادة، وأنّ شيئاً قاسياً وقاتماً حيرني في ملامحه، أمسك عصاه ووقف عند الباب يتأمل، وما إن عبرت الردهة ناداني: "آنسة لالي، هناك شيء أردت أن أقوله لكِ، ربما سمعتِ أن بعض أولاد الريف ليسوا أذكياء، كلمة (معتوه) ستكون قاسية، وعادة ما يُطلق عليهم (طبيعيون) أو شيء من هذا القبيل، لا تتضايقي إن كان الصبي الذي سأجلبه ليس ذكياً، فتلميع الأحذية لا يحتاج إلى جهد ذهني".

خرج وسلك الطريق المؤدية إلى الغابة، كنت في حالة من الذهول، لأول مرة تمتزج دهشتي برعب، لم أعرف سبباً له، وفي قلبي برودة كالموت، وراودني خوف مجهول كان أسوأ من شعور الخوف من الموت، بحثت عن الشجاعة في النسمات العذبة التي هبت من البحر، وفي ضوء الشمس بعد المطر، لمحت الغابات الغامضة تظلم حولي، وتشكلت في ذهني رموز من خوف مبهم برؤية النهر وهو يتلوى بين القصب، وللون الرمادي الفضي للجسر القديم، مثل رعب يتشكل في عقل طفل من أشياء غير ضارة ومألوفة. عاد البروفيسور جريج بعد ساعتين، التقيته في الطريق، وسألته بهدوء إن تمكن من العثور على صبي، فأجاب: "أوه، نعم، وجدت واحداً بسهولة، اسمه جيرفاس كرادوك، سيكون مفيداً، توفي والده منذ سنوات عديدة، ووالدته سعيدة جداً باحتمالية الحصول على بضعة شلنات إضافية كل ليلة سبت، وكما توقعت فهو ليس حاد الذكاء، ويصاب بنوبات أحياناً كما قالت الأم، ولكن بما أنه لن يتم تكليفه بالتعامل مع الخزف فهذا لا يهم كثيراً، أليس كذلك؟ وهو ليس خطيراً بأيّة حال من الأحوال، كما تعلمين، إنه ضعيف قليلاً".

"متى سيأتي؟".

"غداً في الثامنة صباحاً، ستوضح له آن ما يجب فعله، وكيفية القيام بذلك، في البداية سيعود إلى بيته كل ليلة، ولكن ربما يكون من الأفضل له في النهاية أن ينام هنا، ويعود إلى بيته أيام الأحد".

لم أجد ما أقوله، البروفيسور جريج يتحدث بنبرة هادئة وواقعية كما هو متوقع في مثل هذه الظروف، ولكني مستغربة من الأمر كله، فلم نكن نحتاج إلى مساعدة في الأعمال المنزلية، وتنبؤ البروفيسور بأن الفتى الذي سيوظفه سيكون "بسيطاً" ثم يحقق الأمر بدقة أمر غريب. في صباح اليوم التالي، سمعت من الخادمة أن الصبي كرادوك قد جاء في الثامنة، وأنها كانت تحاول جعله مفيداً، وقالت: "لا أظن أنه بكامل قواه العقلية".

في وقت لاحق من اليوم رأيته يساعد المسن الذي يعمل في الحديقة، كان الفتى في الرابعة عشرة من عمره، شعره أسود وعيناه سوداوان وبشرة زيتونية، وبدا أنه يعاني من ضعف عقلي، لمس جبهته محرجاً عندما مررت، وسمعته يجيب البستاني بصوت غريب وخشن لفت انتباهي، أعطاني انطباعاً بأن شخصاً ما يتحدث في أعماق الأرض، وكان هناك صفير غريب وحاد، مثل هسهسة الفونوغراف عندما يتحرك المؤشر فوق الأسطوانة. سمعت أنه حريص على فعل ما في وسعه، هادئ ومطيع، وأكد لي البستاني مورجان البستاني، الذي يعرف والدته، أنه غير مؤذٍ: "إنه غريب الأطوار بعض الشيء، ولا عجب في ذلك بعد ما مرت به والدته قبل ولادته، كنت أعرف والده توماس كرادوك جيداً، وكان عاملاً ماهراً، أصيب بمرض في رئتيه بسبب العمل في الغابات الرطبة ولم يتعافَ منه ورحل فجأة. ويقولون إن السيدة كرادوك فقدت صوابها، ووجدها السيد هيلير من تاي كوتش، وهي منكمشة على التلال الرمادية تبكي وتنتحب مثل روح ضائعة. وولد جيرفاس بعد حوالي ثمانية أشهر، وكان غريب الأطوار، وعندما بدأ المشي كان يخيف الأطفال بسبب الأصوات التي يصدرها".

لقد أثارت كلمة في القصة بعض الذكريات بداخلي، وبدافع الفضول، سألت الرجل العجوز عن مكان التلال الرمادية، ورد: "هناك، تتجاوزين مقهى الثعلب والكلاب إلى الغابة، إنها بجوار الأطلال القديمة. على بعد خمسة أميال، إنه مكان غريب نوعاً ما، يقولون إن التربة هي أفقر تربة هنا، رغم أنها جيدة لرعي الأغنام. لقد كان أمراً محزناً للسيدة كرادوك المسكينة".

عاد المسن إلى عمله، مشيت بين أشجار الكروم المعمرة أفكر في القصة التي سمعتها، أحاول تذكر النقطة التي كانت مفتاحاً لذكرى ما. تذكرتها، كنت قد رأيت عبارة "التلال الرمادية" على الورقة الصفراء التي أخرجها البروفيسور جريج من درج خزانته، عادت إليّ المشاعر المختلطة، هذه المرة فضول وخوف، تذكرت الأحرف الغريبة التي نسختها من الحجر الجيري وتطابقها مع النقش على الختم القديم، والحكايات الخيالية التي ذكرها الجغرافي اللاتيني. أيقنت أنه لم يكن للصدفة دور في هذا، فالأمر كلّه يتمّ بتنظيم دقيق لأحداث غريبة، بل وسأشهد أموراً غير مألوفة.

بدأت أتابع البروفيسور جريج يوماً بعد يوماً، يبدو عليه الشغف، هزل جسمه، وعندما تلامس الشمس حافة الجبل مساء، يبدأ بالمشي على الشرفة وعينه على الأرض، يصبح لون الوادي أبيض بسبب الضباب، وهدوء المساء يقرّب الأصوات البعيدة، يتصاعد دخان أزرق في عمود مستقيم من مدخنة ماسية الشكل للمزرعة الرمادية مثلما رأيته في اليوم الأول، وكما أخبرتك أني أتبنى مبدأ الشك، رغم أني لم أفهم سوى القليل أو لم أفهم شيئاً مما يخطط له البروفيسور جريج إلا أني شعرت بالخوف، حاولت عبثاً أن أذكر نفسي بالفرضيات العلمية التي تقول إن الحياة مادية، وأنه لا توجد أراضٍ مجهولة أبعد من النجوم حيث يمكن للخوارق أن تجد موطئ قدم، وخطرت في بالي فكرة أن المادة مرعبة ومجهولة مثل الروح، وأن العلم يقف عند هذه العتبة، ولا يحصل إلا على لمحة من العجائب في الداخل.

هناك يوم يبرز من بين الأيام الأخرى كمنارة حمراء قاتمة تنذر بالشر القادم، كنت جالسة على مقعد في الحديقة أراقب الصبي كرادوك وهو يزيل الأعشاب الضارة، ارتعبت لسماعي صوتاً خشناً محتنقاً أشبه بصراخ وحش بري يتألم، الفتى المسكين يقف أمامي وجسده يرتجف كصدمات كهربائية تمر عبره، أسنانه تصطك، رغوة تجمعت على شفتيه، وجهه محتقن ومسود كقناع بشع، صرخت وهرع البروفيسور راكضاً، أشرت إلى كرادوك، فسقط وقد تشنج طرف وجهه، جسده يتلوى مثل دودة عمياء جريحة، يهذي بكلمات غريبة، أصوات تنفجر وتهدر وصفير من شفتيه؛ كشتائم لغة من عصور

سحيقة دفنت عميقاً تحت طين النيل، أو في أعمق زوايا الغابة المكسيكية.

خطرت فكرة في ذهني وأذناي ترفضان الصخب: "هذا هو خطاب الجحيم".

كررت ما قلته صارخة وركضت بعيداً أرتجف من أعماق روحي، رأيت وجه البروفيسور جريج وهو ينحني فوق الصبي البائس ويرفعه، ارتعبت من وهج البهجة الذي طغى على ملامح البروفيسور. انزويت في غرفتي، الستائر مسدلة، عيني في يدي، خطوات ثقيلة في الأسفل، قيل لي بعد ذلك أن البروفيسور جريج حمل كرادوك إلى مكتبه وأغلق الباب. هسيس غير واضح، ارتجفت عندما فكرت في ما قد يحدث على بعد بضعة أقدام من مكاني، وددت أن أهرب إلى الغابات وأشعة الشمس، خشيت مما قد أراه في الطريق، وضعت يدي على مقبض الباب، فأفزعني صوت البروفيسور جريج وهو يناديني بنبرة مبتهجة: "كل شيء على ما يرام آنسة لالي، تخطى المسكين النوبة، رتبوا له النوم هنا بعد غد، ربما أتمكن من فعل شيء لأجله".

قال لاحقاً: "لقد كان مشهداً مؤلماً للغاية، ولا عجب أنكِ شعرت بالذعر، نأمل أن يساعده الطعام الجيد في التحسن، لكني أخشى ألا يشفى أبداً".

وتظاهر بنظرة كئيبة مألوفة، تلك التي يتحدث بها المرء عن المرض المستعصي، ولكني لمست تحتها فرحة تكاد تتفجر بداخله وتصارع لتجد طريقها إلى التعبير. الأمر أشبه بسطح بحر هادئ تحته أعماق هائجة من الأمواج المتصارعة. كانت بالفعل معضلة مؤلمة ومزعجة لي، فهذا الرجل أنقذني من براثن الموت، وأظهر نفسه كرجل خيّر رحيم، ولكنّني اكتشفت أنه يقف في صف الشياطين، ويستمتع بعذابات مخلوق بائس مريض، لم يكن أحد معي ليسندني، واجهت الأمر لوحدي، وسعيت جاهدة لإيجاد حل، لم أكن أملك دليلاً على ما أشعر به، كنت في لجة الغموض والتناقضات، ولا يوجد شيء يخرجني مما أنا فيه، أتساءل إن كنت قد هربت من الضباب الأبيض في الضواحي بثمن باهظ للغاية، لمحت للبروفيسور بشيء من أفكاري وما أشعر به، ليعرف شيئاً من حيرتي الشديدة، ولكني ندمت في اللحظة نفسها، فقد رأيت وجهه يتلوى ألماً، وقال: "عزيزتي آنسة لالي، من المؤكد أنكِ لا ترغبين في تركنا؟ لا، لن تفعلي ذلك، أنت لا تعرفين كيف أعتمد عليك؛ وكيف أمضي قدماً بثقة لأنك هنا لمراقبة أطفالي. أنت حارستي، لتعلمي أن العمل الذي أقوم به ليس خالياً من المخاطر، وتذكري ما قلته في أول صباح لنا هنا، لن أتحدث لأحد عما أعمل عليه، هذا قراري السابق وتعرفيه، لن أتحدث بنظريات ولو كانت ذكية أو تخمينات غامضة، بل بحقائق لا يمكن دحضها، مؤكدة كبرهان رياضي، فكري آنسة لالي، لن أجبركِ على البقاء ضد رغبتك، رغم أني مقتنع بأن واجبك هنا وسط الغابة".

تأثرت ببلاغته، وهذا الرجل منقذي، فمددت يدي ووعدته بأن أخدمه بإخلاص ودون أسئلة. بعد أيام زارنا كاهن البلدة الذي يسكن كنيسة صغيرة رمادية اللون غريبة، تقع على ضفاف النهر كأنها تراقب المد والجزر، وأقنعه البروفيسور جريج بالبقاء ومشاركتنا العشاء، كان السيد ميريك من نسل عائلة عريقة من ملاك الأراضي، ويقع قصرهم القديم بين التلال على بعد سبعة أميال، وبالتالي كان الكاهن بجذوره العميقة مخزناً حياً للعادات والتقاليد والمعارف القديمة المنسية في البلدة، أعجب به البروفيسور للطافته وغرابته، عندما بدأ نبيذ بورغوندي يعمل سحره أضاء الرجلان كالنبيذ، وتحدثا عن علم اللغة بحماس يشبه حماس مواطن يتحدث عن طبقة النبلاء، كان الكاهن يشرح نطق الحرف الويلزي "ll"، ويصدر أصواتاً تشبه خرير الجداول في وطنه.

قاطعه البروفيسور جريج: "بالمناسبة، صادف أن سمعت كلمة غريبة جداً قبل أيام، أنت تعرف فتاي المسكين جيرفاس كرادوك، لديه عادة سيئة وهي التحدث مع نفسه، قبل يومين كنت أسير في الحديقة وسمعته، من الواضح أنه لم يكن يعلم بوجودي، لم أستطع فهم الكثير مما قاله، ولكن كلمة واحدة لفتت انتباهي، كان صوته غريباً جداً، نصفه صفير ونصفه من حنجرته، كانت غريبة مثل تلك الحروف المزدوجة ll التي كنت تشرحها، لا أعرف ما إذا كان بإمكاني إعطاؤك فكرة عن الصوت، ربما تكون الكلمة: "إيشاكشار"، هذا أقرب ما أستطيع توضيحه، ولكن الحرفk حرف chi اليوناني أو j الإسباني. ماذا يعني ذلك في الويلزية؟".

قال الكاهن: "لا توجد مثل هذه الكلمة في الويلزية ولا أية كلمة تشبهها حتى من بعيد. أنا أعرف الويلزية المكتوبة كما يسمونها، واللهجات العامية أيضاً مثل أي شخص، ولا توجد كلمة مثل تلك من أنجلسي إلى أوسك. بالإضافة إلى ذلك، لا أحد من عائلة كرادوك يتحدث كلمة واحدة من الويلزية؛ إنها لغة في طريقها للانقراض هنا".

"حقاً! أنت تثير اهتمامي بشدة يا سيد ميريك، أعترف أن هذه الكلمة لم تخطر ببالي على الإطلاق. لكنني ظننت أنها قد تكون تحريفاً محلياً".

"لا، لم أسمع بمثل هذه الكلمة أو أي شيء يشابهها في الواقع"، وأضاف مبتسماً بشكل غريب: "إذا كانت تنتمي إلى أية لغة، فيجب أن أقول إنها بالتأكيد لغة الجن، ال(تيلويد تيج)، كما نسميهم".

استمر الحديث، وصلوا إلى اكتشاف فيلا رومانية في الجوار، غادرت الغرفة وجلست بمفردي أتأمل في تجمع الأدلة الغريبة، وبينما كان البروفيسور يتحدث عن الكلمة الغريبة لمحت بريقاً في عينيه، رغم أن نطقه للكلمة كان غريباً للغاية. عرفت اسم الحجر ذي الستين حرفاً عندما ذكره سولينوس في كتابه، وأن الختم الأسود المغلق مختوم إلى الأبد من قبل عرق منقرض برموز لا يمكن لأحد قراءتها، قد تكون رموزاً، وحجاباً لأشياء مروعة حدثت منذ زمن بعيد، ونسيت قبل أن تتشكل التلال.

نزلت صباحاً، رأيت البروفيسور جريج في نزهته التي تبدو أبدية على الشرفة، وعندما رآني قال: "انظري إلى ذلك الجسر، لاحظي التصميم القوطي الغريب، والزوايا بين الأقواس، واللون الرمادي الفضي للحجر في هيبة ضوء الصباح، أعترف أنه يبدو لي رمزياً، يجب أن يوضح رمزية صوفية للانتقال من عالم إلى آخر".

قلت بهدوء: "الأستاذ جريج، لقد حان الوقت لأعرف شيئاً عما حدث، وما سيحدث".

صرفني، مساء أعدت السؤال، عندها ثار البروفيسور جريج من الإثارة، وصاح: "ألم تفهمي بعد؟ لكنني أخبرتكِ وأريتكِ الكثير، لقد سمعتِ ورأيتِ تقريباً كل ما سمعته، ما يكفي لجعل الأمر واضحاً كالنهار. أخبركِ الخدم أن الفتى البائس كرادوك تعرض لنوبة أخرى قبل ليلتين، أيقظني بصراخه بذلك الصوت الذي سمعتِه في الحديقة، ذهبت إليه، ولن أتمنى أن تري ما رأيته، ولكن كل هذا بلا فائدة، وقتي هنا يقترب من نهايته، يجب أن أعود إلى المدينة في غضون ثلاثة أسابيع، فلدي محاضرات سأعدها، وأحتاج كل كتبي. في غضون أيام قليلة سينتهي كل شيء، ولن أعود إلى التلميح، ولن أكون عرضة للسخرية كمجنون أو دجال، سأتحدث بصراحة، وسيُسمع صوتي بمشاعر لم يسبق للدارسين أن أحسوا بها".

توقف، وبدا وكأنه مشرقاً بفرحة الاكتشاف العظيم: "هذا من أجل المستقبل، المستقبل القريب، لكنه يبقى مستقبلاً"، تابع حديثه بعد صمت: "لا يزال هناك شيء يجب القيام به، لقد أخبرتكِ أن أبحاثي لم تخلُ من المخاطر، هناك قدر من المخاطر تجب مواجهتها، ولا أعرف مقدارها، مازلت في الظلام، لكنها ستكون مغامرة غريبة وأخيرة، الحلقة الأخيرة في السلسلة".

يجوب الغرفة جيئة وذهاباً وهو يتحدث، في صوته نبرات متضاربة من الفرح واليأس، وقد أقول الرهبة، رهبة رجل ينطلق في مياه مجهولة، تذكرت إشارته إلى كولومبوس في الليلة التي وضع فيها كتابه أمامي. كان المساء بارداً بعض الشيء، وأُشعلت نار من جذوع الأشجار في المكتب، ذكرني اللهب المتقطع والوهج على الجدران بالأيام الخوالي. جلست صامتة على كرسي بجوار النار، أتأمل ما سمعته، عبثاً أحاول التكهين بالأسرار المخفية عني تحت كل الأوهام التي شهدتها، وفجأة شعرت بتغيير حدث في الغرفة، وشيء غير مألوف في مظهرها، نظرت حولي أحاول تحديد التغيير، الطاولة بجوار النافذة، والكراسي والأريكة الباهتة كما كنت أعرفها. وفجأة ومضت ذكرى في ذهني فعرفت الخطأ.

كنت أواجه مكتب الأستاذ الذي يقع على الجانب الآخر من الموقد، فوق المكتب تمثال نصفي متسخ المظهر لـ"بيت"، لم يسبق لي أن رأيته هنا، تذكرت المكان الحقيقي لهذا العمل الفني؛ في أقصى زاوية بجوار الباب خزانة قديمة، فوقها على بعد خمسة عشر قدماً من الأرض، كان التمثال النصفي، ولا شك أنه هناك منذ فترة طويلة، وذلك لتراكم الغبار عليه، وكأن

أحداً لم يلمسه منذ السنوات الأولى من القرن. كنت مذهولة، لم أتكلم، حائرة، فلم يكن هناك سلم في المنزل، إذ بحثت عن واحد لأعدل ستائر غرفتي ولم أجد، ومن المستحيل أن يتمكن رجل طويل القامة وإن وقف على كرسي أن ينزل التمثال، لأنه كان موضوعاً بعيداً عند الحائط، وكان البروفيسور جريج أقل من الطول المتوسط، سألته في النهاية: "كيف تمكنت من الوصول إلى تمثال بيت؟". فنظر إليّ بفضول، وبدا التردد عليه، فأردفت: "لا بد أنهم وجدوا لك سلماً، أو ربما أحضر البستاني سلماً قصيراً من الخارج".

فقال ليحرجني وكأنه يمزح: "لم يكن لديّ سلمٌ، يا آنسة لالي، هذا لغز صغير لكِ؛ مشكلة على طريقة هولمز الذي لا يضاهى؛ ها هي الحقائق واضحة وجلية؛ أعملي ذكاءك لحل اللغز"، ثم صاح بصوت متقطع: "لا تطلبي معلومات أكثر، أؤكد لكِ أني لم ألمس هذا الشيء أبداً".

خرج من الغرفة والرعب واضح على وجهه، وارتجفت يده وارتطم الباب خلفه، أقلب نظري في الغرفة مدهوشة، غير مدركة ما حدث، أفكر في تخمينات لأفسر ما حدث، واستغربت أن كلماتي العابرة حركت مياهاً سوداء في نفسه، بسبب تغيير تافه لزينة، فكرت: "هذه مسألة تافهة، صدمتني؛ ربما يكون البروفيسور دقيقاً وخائفاً من الخرافات وأن ينعت بالتفاهة، وربما أثار سؤالي مخاوف لم يعترف بها، كقتل عنكبوت أو إراقة الملح أمام سيدة اسكتلندية عملية". انغمست في هذه الشكوك الواهية، أتباهى بمناعتي ضد هذه المخاوف الفارغة، فسقطت الحقيقة بثقل كالرصاص على قلبي، ارتعبت، هناك تأثيرات غير معروفة بدأت العمل، فقد كان التمثال النصفي بعيداً عن متناول اليد، وبدون سلم لا يمكن لأحد أن يلمسه. ذهبت إلى المطبخ وتحدثت بهدوء قدر استطاعتي مع الخادمة: "من نقل التمثال من أعلى الخزانة يا آن؟ يقول البروفيسور جريج إنه لم يلمسه، هل وجدت سلماً قديماً في أحد الحجرات الخارجية؟".

نظرت إلي الفتاة بذهول: "لم ألمسه، وجدته على المكتب عندما قمت بتنظيف الغرفة صباح الأربعاء، لأنه كان الصباح الذي تلى ليلة مرض كرادوك الشديد، غرفتي بجوار غرفته كما تعلمين، يا آنسة، وكان أمراً مرعباً أن أسمعه يصرخ وينادي بأسماء لم أفهمها. شعرت بخوف شديد، ثم جاء البروفيسور، وسمعته يتحدث، وأخذ كرادوك إلى المكتب وأعطاه شيئاً".

"وهل وجدت هذا التمثال النصفي في غير مكانه صباح اليوم التالي؟".

"نعم يا آنسة، وكانت هناك رائحة غريبة كريهة في المكتب، ففتحت النوافذ، وتساءلت عما يمكن أن تكون، هل تعلمين يا آنسة، لقد ذهبت منذ فترة طويلة إلى حديقة الحيوانات في لندن مع ابن عمي توماس باركر، في إحدى إجازاتي، عندما كنت في منزل السيدة برينس في ستانهوب جيت، ودخلنا بيت الثعابين لرؤية الثعابين، وكانت نفس الرائحة تماماً، جعلتني أشعر بالغثيان، وطلبت من باركر أن يأخذني للخارج. وعندما رأيت التمثال النصفي لصورة "بيت" على مكتب السيد، بدأت أتساءل، فاقتربت من التمثال ورأيت علامة كبيرة فيه اختفى منها الغبار، لم تكن مثل علامات الأصابع، بل رقعة كبيرة عريضة وممتدة، مسحتها بيدي فكانت لزجة ودبقة، وكأن حلزوناً زحف عليها، أمر غريب، أليس كذلك يا آنسة؟ أتساءل من فعل ذلك، وكيف حدثت هذه الفوضى".

لمست ثرثرة الخادمة ذات النوايا الحسنة أعماقي، استلقيت على سريري أعض شفتي حتى لا أصرخ من شدة الرعب والحيرة، كنت على وشك الجنون من شدة الخوف. لو كان الوقت نهاراً لفررت من المكان، متخلية عن الشجاعة وناسية الامتنان لدينٍ في عنقي للبروفيسور جريج، فالموت جوعاً أهون من أن أبقى عالقة في شبكة الخوف الأعمى والذعر، التي بدا أنها تضيق الخناق عليّ كل يوم. لو كنت أعرف ما الذي يخيفني، لاحتميت ضده، ولكني هنا، في هذا المنزل المنعزل المحاصر من جميع الجوانب بالغابات القديمة والتلال المقببة، حيث ينبعث الرعب وينبع من كل مخبأ، وجسمي يرتعب من همسات مرعبة تحيطني، عبثاً حاولت استحضار الشكوك لمساعدتي، وسعيت جاهدة لدعم إيماني بالمنطق العلمي، ولكن بلا جدوى، فالهواء الذي يهب من النافذة كان نفساً غامضاً، والصمت في الظلام ثقيل حزين كقداس جنائزي، وتخيلت أشكالاً غريبة تتجمع بسرعة بين القصب، بجانب مياه النهر.

صباحاً، ما إن وضعت قدمي في غرفة الإفطار شعرت بالمؤامرة المجهولة تتجه نحو ذروتها، فوجه البروفيسور ثابت وحازم، وبدا وكأنه بالكاد يسمع أصواتنا، وقال بعد أن أنهى وجبته: "سأخرج في نزهة طويلة، لا تنتظروني، ولا تعتقدوا أن شيئاً قد حدث لي إن لم أحضر لتناول العشاء، أشعر أني أصبحت أتصرف بحماقة في الآونة الأخيرة، وأعتقد أن جولة صغيرة بالأقدام قد تفيدني، ربما أقضي الليل في أحد الفنادق الصغيرة، إذا وجدت مكاناً نظيفاً ومريحاً".

أدركت من تجربتي لسلوك البروفيسور جريج أن الأمر لم يكن متعلقاً برغبته في الراحة، لم أستطع معرفة ما ينوي فعله أو إلى أين سيذهب، عادت إليّ مخاوف الليلة السابقة عندما رأيته يقف مبتسماً مستعداً للذهاب، رجوته أن يبقى وينسى كل أحلامه عن القارة غير المكتشفة، وأجابني ولم تفارق الابتسامة وجهه: "لا، يا آنسة لالي، (لا خطوة إلى الوراء)، هو شعار كل المستكشفين الحقيقيين، ولكن ما سبب خوفك الكبير، لأني أعتبر رحلتي الصغيرة أمراً عادياً، مثل استطلاع جيولوجي. لا أنكر أن هناك مخاطر في هذه المغامرة، ولكن المخاطر موجودة حتى في الرحلات العادية، وأنا لا أخاطر كما يفعل آري في كل عطلة له بالمصرف، برحلاته ومغامراته، لذلك أرجو أن تتفاءلي، ألقاكِ غداً على أقصى تقدير".

ابتعد بسرعة، واختفى في طريق الغابة. مر اليوم ثقيلاً مظلماً بغرابة، أشعر أني محبوسة وسط غابات مسحورة، في أرض مليئة بالغموض والرعب خارج نطاق البشر. حل وقت العشاء فتوقعت سماع خطوات البروفيسور في الردهة، وأن أسمع صوته مبتهجاً، هيأت نفسي لاستقباله، حل الظلام ولم يأتِ. صباحاً طرقت الخادمة بابي، سألتها إن كان السيد قد عاد، فأجابتني بأن غرفة نومه مفتوحة وخالية، شعرت بوخزة يأسَ باردة. قلت أنه ربما وجد رفيقاً لطيفاً وسيعود لتناول الغداء، فأخذت الأطفال في نزهة في الغابة، وحاولت قدر استطاعتي اللعب والضحك معهم، لأطرد أفكار الغموض والرعب من ذهني، تمر الساعات وتصبح أفكاري أكثر قتامة. حل الليل وجلست أراقب، وبينما كنت أحاول إنهاء عشائي سمعت خطوات بالخارج وصوت رجل، دخلت الخادمة ونظرت إليّ نظرة غريبة، وقالت: "من فضلك يا آنسة، السيد مورجان البستاني يريد التحدث إليك لمدة دقيقة، إذا لم تمانعي".

عضضت شفتي: "أدخليه من فضلك".

دخل المسن ببطء، وأغلقت الخادمة الباب خلفه، طلبت منه الجلوس وسألته عما يريد قوله، فقال: "حسناً يا سيدتي، أعطاني السيد جريج شيئاً لك صباح الأمس قبل أن يرحل، وطلب مني ألا أسلمه لك قبل الساعة الثامنة من مساء اليوم، إذا لم يعد إلى المنزل قبل هذا الوقت، وإذا رجع أعيده له، وبما أنه لم يعد فسأسلمه لكِ".

أخرج شيئاً من جيبه وسلمه لي، تناولته صامتة، رأيت مورجان متردداً، بدا أنه لا يعرف ما سيفعله بعد ذلك، فشكرته وتمنيّت له ليلة سعيدة فخرج. أخرجتهم من الغرفة وجلست وحدي، طرد ورقي مغلق بإحكام موجه إليّ، فتحته وقلبي منقبض، وجدت مظروفاً بالداخل موجه إليّ أيضاً ولكنه مفتوح، أخرجت رسالة وبدأت أقرأ: (عزيزتي آنسة لالي، استشهاداً بكتاب المنطق القديم، فإن قراءتك لهذه الرسالة تعني أني ارتكبت خطأ ما، وهذا الخطأ يحول هذه السطور إلى وداع، ومن المؤكد علمياً أنه لن يراني أحد بعد ذلك، كتبت وصيتي وراعيت هذا الاحتمال، وآمل أن توافقي على قبول التذكار الصغير الموجه إليكِ، وشكري الصادق على الطريقة التي جمعتِ فيها حظوظكِ بحظوظي. المصير الذي حلّ بي يائس ومروع يتجاوز أحلام الإنسان، ولكن لديكِ الحق في معرفته إذا رغبتِ، إذا نظرتِ في الدرج الأيسر من منضدة زينتي ستجدين مفتاح المكتبة، وفي جوف المكتبة مظروف كبير مغلق وموجه إليكِ، أنصحكِ بإلقائه في النار فوراً وستنامين بشكل أفضل ليلاً إذا فعلتِ ذلك. ولكن إذا كان يجب عليكِ معرفة تاريخ ما حدث، فكل شيء مكتوب لكِ لتقرئيه).

توقيعه في الأسفل، قرأت الرسالة عدة مرات مذهولة وقد تيبست شفتاي وبردت يداي كالثلج، أصبت بالغثيان، الصمت مطبق في الغرفة، وفكرة الغابات المظلمة وأن التلال تحاصرني تضايقني، كنت عاجزة غير قادرة على فعل شيء، ولا أعرف إلى أين ألجأ للحصول على المشورة. قررت، رغم أن المعرفة ستطاردني طوال حياتي فإنه يجب أن أعرف سبب الرعب الغريب الذي عذبني لفترة طويلة، والذي كان يرتفع رمادياً باهتاً ومرعباً مثل الظلال في الغابة عند الغسق. نفذت تعليمات الأستاذ جريج بعناية، كسرت ختم المغلف، ونشرت مخطوطته أمامي. تلك المخطوطة التي أحملها معي دائماً، وأرى أنني لا

أستطيع رفض طلبك غير المعلن بقراءتها. هذا، إذن، قرأت وأنا جالسة على المكتب، ومصباح مظلل بجانبي.

ولذا فقد شرعت السيدة الشابة التي أطلقت على نفسها اسم الآنسة لالي في تلاوة البيان التالي: (بيان ويليام جريج، زميل الجمعية الملكية، إلخ...

مرت سنوات طويلة منذ أن بزغت أولى خيوط النظرية التي أصبحت الآن حقيقة في ذهني، ساعدتني القراءة الكثيرة والمتنوعة في تمهيد الطريق لي لأصبح متخصصاً في الدراسات المعروفة باسم الإثنولوجيا، وفي أحيان كثيرة تفاجأت بحقائق لا تتوافق مع الرأي العلمي التقليدي، وباكتشافات تشير إلى شيء ما زال مخفياً رغم كل أبحاثنا. واقتنعت بأن الكثير من الفلكلور العالمي ليس سوى وصف مبالغ فيه لأحداث حدثت بالفعل، فزاد اهتمامي بقصص الجنيات، أو "شعب السلتيك الطيب" من الأعراق الكلتية. واعتقدت أني أستطيع توضيح الحد بين الواقع والمبالغات الخيالية، وأن أكتشف الشعب الصغير الذي يرتدي الأخضر والذهبي ويلعب بين الزهور، وأعتقد أني رأيت تشابهاً واضحاً بين الاسم الذي أُطلق على هذا العرق –الذي يفترض أنه خيالي– ووصف مظهرهم وأخلاقهم. وأطلق أسلافنا على الكائنات المخيفة صفات "جميلة" و"طيبة" لخشيتهم منها، وزينوها بأشكال ساحرة، مع علمهم بأن الحقيقة عكس ذلك تماماً. كما أن الأدب أيضاً بدأ العمل مبكراً وساهم بقوة في هذا التحول، بحيث أصبحت الجنيات المرحة لشكسبير بعيدة جداً عن الأصل الحقيقي، وأصبح الرعب الحقيقي مخفياً في شكل من أشكال الأذى الماكر.

ولكن الحكايات الأقدم، قصص تدور حول رجال يرسمون علامة الصليب على أنفسهم وهم يجلسون حول جذوع الأشجار المشتعلة، تلك مرحلة مختلفة، وجدت فيها قصصاً عن اختفاء بعض الأطفال والرجال والنساء بشكل غريب من الأرض. كأن يرى فلاح أحدهم في الحقول وهو يسير نحو تلة خضراء مستديرة ثم يختفون، وهناك قصص عن أمهات تركن أطفالهن نائمين بهدوء بعد أن أُغلق باب الكوخ بقسوة بقطعة من الخشب، ثم عدن ولم يجدوا الصغير الممتلئ والوردي، بل مخلوقاً من عرق آخر نحيفاً ذا بشرة شاحبة وعينين سوداوين ثاقبتين.

وهناك أساطير أكثر قتامة تدور حول الخوف من الساحرات والسحرة، والشر المروع في يوم السبت، وتلميحات إلى أن الشياطين اختلطوا ببنات البشر، كما حولنا "الشعب الطيب"، المخيف إلى مجموعة من الجان الطيبين، وإن كانوا غريبي الأطوار. وبذلك أخفينا عن أنفسنا قذارة الساحرة ورفاقها تحت ستار من الشعوذة الشعبية لعجائز وعصي مكانس وقطط هزلية بذيول منتصبة، وهكذا أطلق اليونانيون على المخلوقات البغيضة اسم "السيدات الطيبات"، وحذت الأمم الشمالية حذوهم.

واصلت دراساتي مهملاً وقتي في العمل على أمور أكثر إلحاحاً، وسألت نفسي السؤال التالي: إذا افترضنا أن هذه القصص الخرافية صحيحة، فمن هم الشياطين الذين يقال إنهم يحضرون السبت؟ لا أحتاج إلى القول إنني تجاهلت ما قد أسميه فرضية ما وراء الطبيعة في العصور الوسطى، وتوصلت إلى استنتاج مفاده أن الجنيات والشياطين من نفس الجنس والأصل؛ لا شك أن الاختراع والخيال القوطي في الأيام الخوالي كان له دور كبير في المبالغة والتشويه، ومع ذلك لدي اعتقاد راسخ أن وراء كل هذه الصور خلفية سوداء من الحقيقة. وترددت أمام بعض العجائب المزعومة، مثلما كنت سأتردد أمام أمثلة من الروحانية الحديثة باعتبارها تحوي على ذرة من الحقيقة، إلا أنني لم أكن مستعداً تماماً لإنكار أن الجسد البشري قد يكون أحياناً – ربما مرة واحدة في عشرة ملايين حالة– حجاباً لقوى تبدو لنا سحرية، قوى لا تنبع من المرتفعات وتقود البشر إليها، بل هي في الحقيقة بقايا من أعماق الوجود.

الأميبا والقواقع لديها قوى لا نملكها، وفكرت في أنه من الممكن أن تفسر نظرية الارتداد أشياء كثيرة تبدو غير قابلة للتفسير. وهكذا كان موقفي؛ رأيت سبباً وجيهاً للاعتقاد بأن الكثير من التقاليد، والكثير من أقدم التقاليد غير الفاسدة لما يسمى بالجنيات تمثل حقائق ثابتة، واعتقدت أن العنصر الخارق للطبيعة في هذه التقاليد، يمكن تفسيره على أساس الفرضية القائلة بأن العرق الذي سقط من المسيرة الكبرى للتطور ربما احتفظ – كبقاء– ببعض القوى التي ستكون بالنسبة لنا معجزة تماماً. هذه نظريتي كما تصورتها في ذهني؛ وعملت على هذا في الاعتبار، بدا الأمر وكأنني أجمع التأكيدات من كل

جانب، من غنائم تلة دفن أو كومة، ومن صحيفة محلية تتحدث عن اجتماع للآثار في الريف، ومن الأدب العام بأنواعه. من بين حالات أخرى، أتذكر أنني تأثرت بعبارة "الرجال الناطقون بفصاحة" في هوميروس، كما لو كان الكاتب يعرف أو سمع عن رجال كانت كلماتهم فظّة لدرجة أنه من الصعب وصفها بأنها فصاحة؛ وبناءً على فرضيتي حول عِرق تأخر كثيراً عن بقية البشر، يمكنني أن أتصور بسهولة أن مثل هذا الشعب سيتحدث بلغة عامية لا تبتعد كثيراً عن أصوات الحيوانات غير المفهومة.

وهكذا وقفت، مقتنعاً بأن تخميني لم يكن بعيداً عن الحقيقة بأيّة حال، عندما لفتت انتباهي صدفة ذات يوم فقرة منشورة في إحدى الصحف الريفية الصغيرة. كان تقريراً قصيراً لما بدا أنه مأساة قذرة معتادة في القرية، اختفت شابة بلا سبب واضح، وشائعات خبيثة تتهم سمعتها. وتمكنت أن أقرأ بين السطور أن كل هذه الفضائح افتراضية، وعلى الأرجح أنها مختلقة لتفسير شيء غير قابل للتفسير: هروب إلى لندن أو ليفربول، أو جثة غير مكتشفة ملقاة مع ثقل حول عنقها في أعماق قذرة لبركة في غابة، أو ربما جريمة قتل، هذه كانت نظريات جيران الفتاة المسكينة. بينما كنت أتصفح الفقرة بلا مبالاة، خطرت لي فكرة مفاجئة أشبه بصدمة كهربائية: ماذا لو أن السلالة الغامضة والمرعبة ما زالت باقية، وتعيش في الأماكن البرية والتلال القاحلة، وأحياناً تخرج لتكرر شر الأسطورة القوطية دون تغيير، مثل شيلتا التورانية أو الباسك في إسبانيا.

قلت إن الفكرة جاءتني بعنف، وبالفعل شهقت بقوة، وتمسكت بكلتا يدي بالكرسي، في ارتباك غريب بين الرعب والابتهاج. كان الأمر كما لو أن أحد زملائي في العلوم الطبيعية يتجول في غابة إنجليزية هادئة، أصيب فجأة بالذهول لمشاهدته الإكثيوصور[5]، أصل قصص الديدان الرهيبة التي قتلها الفرسان الشجعان، أو رأى الشمس مظلمة بسبب البتروداكتيل[6]، التنين التقليدي. ولكن كباحث عن المعرفة بصرامة علمية فإن فكرة مثل هذا الاكتشاف جعلتني أشعر بالسعادة، قطعت المقال من الصحيفة، ووضعتها في درج في مكتبي القديم، مصمماً على أن تكون القطعة الأولى في مجموعة ذات أهمية غريبة للغاية.

جلست طويلاً في ذلك المساء أحلم بالنتائج التي سأتوصل إليها، ولم يزعزع التفكير الهادئ في البداية ثقتي. ومع ذلك، عندما بدأت في عرض القضية بشكل منصف، أدركت أنني ربما أبني على أساس غير مستقر؛ وقد تكون الحقائق متوافقة مع الرأي المحلي؛ ونظرت إلى الأمر بمزاج من التحفظ. ومع ذلك، قررت أن أبقى متيقظاً، وضممت إلى نفسي فكرة أنني وحدي أراقب، بينما يقف الحشد الكبير من المفكرين والباحثين بلا مبالاة، ربما سمحوا لأهم الحقائق بالمرور دون أن يلاحظها أحد.

مرت عدة سنوات قبل أن أتمكن من إضافة المزيد إلى محتويات الدرج، ولم يكن الاكتشاف الثاني ذا قيمة في الواقع، لأنه كان مجرد تكرار للأول، مع اختلاف بسيط في مكان آخر بعيد. ومع ذلك اكتسبت شيئاً؛ فالحالة الثانية مشابهة للأولى، وقعت المأساة في بلد مهجور ومنعزل، وبالتالي بدت نظريتي مبررة. لكن الجزء الثالث كان بالنسبة لي أكثر حسماً. مرة أخرى، بين التلال البعيدة، بعيداً حتى عن طريق المرور الرئيسة، تم العثور على مسن متوفى، وتركت أداة الإعدام بجانبه. هنا، في الواقع، كانت هناك شائعات وتكهنات، لأن أداة القتل كانت فأساً حجرياً بدائياً، مربوطة بحبل إلى المقبض خشبي، وتم التكهن بأكثر التخمينات تطرفاً واستحالة، وهي بعيدة عن الحقيقة، وبذلت جهداً لمراسلة الطبيب المحلي الذي تم استدعاؤه للتحقيق، وكان رجلاً فطناً ولكنه كان محتاراً، وردّ عليّ:

(لا يجوز التحدث عن هذه الأمور في الريف، ولكن بصراحة يا بروفيسور جريج، هناك غموض مروع، حصلت على الفأس الحجري، وأصابني الفضول لأختبر قوتها، فأخذتها إلى الحديقة الخلفية لمنزلي في أحد أيام الأحد بعد الظهر، عندما كان أفراد عائلتي والخدم خارج المنزل، وأجريت تجاربي على سياج من خشب الحور، أدركت أنه لا يمكن التحكم في الفأس على الإطلاق، وكأنه يحتاج إلى توازن خاص أو غريب وضبط دقيق للأوزان يتطلب ممارسة مستمرة، لم أعرف إن كان يتطلب توجيه ضربة فعالة يتم بخدعة معينة أو بحركة ما في العضلات، ولكن ما أعرفه أني دخلت المنزل متأسفاً على قدراتي

الرياضية، كان الأمر أشبه برجل عديم الخبرة يحاول "رمي مطرقة". بدا الأمر وكأن القوة المبذولة ترتد على المرء، لأني قُذفت إلى الوراء بعنف، وسقط الفأس على الأرض دون ضرر. والتجربة الأخرى استعنت بحطاب ماهر أعرفه، يستخدم الفَأس منذ أربعين عاماً، ولم يستطع فعل أي شيء بالأداة الحجرية، وأخطأ كل ضربة بشكل مثير للسخرية. باختصار، إنه لمدة أربعة آلاف عام لن يتمكن أحد على وجه الأرض من توجيه ضربة فعالة بالأداة التي استخدمت لقتل المسن).

هذا الخبر شد انتباهي، وعند سماعي القصة وبحثي علمت أن المسن المقتول كان يثرثر بحكايات عما يُرى ليلاً على سفح تل معين، ملمحاً إلى عجائب غريبة، وعُثر عليه ميتاً على نفس التل. شعرت بالسعادة لأني تركت التخمين، لكن الخطوة التالية كانت ذات أهمية أكبر، فقد كنت أمتلك منذ سنوات طويلة ختماً حجرياً غير عاديّ، قطعة من حجر أسود باهت، يبلغ طوله بوصتين من المقبض إلى الختم، وفي نهاية الختم شكل سداسي خشن يبلغ قطره بوصة وربع، كان يبدو وكأنه سدادة تبغ مكبرة من صنع قديم، أرسله لي وكيل في الشرق، وأبلغني أنه تم العثور عليه قرب بابل القديمة، لكن الحروف المنقوشة على الختم شكلت لي لغزاً لا يمكن حله. كانت الأحرف قريبة من نمط الكتابة المسمارية ولكن بها اختلافات لافتة للنظر، لاحظتها من النظرة الأولى، بذلت جهوداً كبيرة لفك رموز الكتابة وبؤت بالفشل.

هذا اللغز جرح كبريائي، وفي أيّة لحظة فراغ أقوم بإخراج الختم من الخزانة وأفحصه حتى حفظت كل نقش فيه، تخيلوا مدى دهشتي عندما تلقيت ذات يوم من صديق لي ويعمل مراسلاً في غرب إنجلترا رسالة ومرفقاً، فتحت الورقة فرأيت حروف الختم الأسود نفسها، وفوق النقش كتب صديقي: (نقش وجد على صخرة من الحجر الجيري في التلال الرمادية، مونماوثشاير. تم رسمه بتربة حمراء وهي حديثة جداً). فتحت الرسالة وقرأت ما كتبه: (أرسل لك النقش المرفق وبعض الأحداث، يقسم راعي أغنام مر بالحجر قبل أسبوع أنه لم يكن هناك أيّةعلامة من أي نوع. لاحظت أن الحروف تشكلت بتربة حمراء فوق الحجر، ويبلغ متوسط ارتفاعها بوصة واحدة، تبدو وكأنها نوع من الحروف المسمارية مع الكثير من التغييرات، ولكن هذا مستحيل بالطبع، فقد يكون خدعة أو على الأرجح خربشات للغجر، الذين يتواجدون بكثرة في هذا المكان، لديهم، كما تعلم، العديد من الحروف الهيروغليفية ويستخدمونها في التواصل مع بعضهم، صادف أني زرت الحجر قبل يومين لحادث مؤلم وقع بالقرب منها).

كتبت على الفور إلى صديقي وشكرته على نسخة النقش، وسألته عن تاريخ الحادثة التي ذكرها. باختصار، سمعت أن امرأة تدعى كرادوك فقدت زوجها قبل يوم واحد، وهرعت لإبلاغ الخبر الحزين لابنة عمها التي كانت تعيش على بعد خمسة أميال. واتخذت طريقاً مختصرة تؤدي إلى التلال الرمادية، ولم تصل السيدة كرادوك التي كانت شابة آنذاك إلى منزل قريبها. وفي وقت متأخر من الليل، فقد مزارع بضعة أغنام، يُفترض أنها تاهت عن القطيع، سار عبر التلال الرمادية، ومعه كلبه ومصباح. وجذب انتباهه ضجيج وصفه بأنه نوع من العويل، حزين ومثير للشفقة، ووجد السيدة كرادوك المسكينة رابضة على الأرض بجوار صخرة من الحجر الجيري، تهز جسدها وتبكي بطريقة مفجعة لدرجة أن المزارع، كما يقول، اضطر في البداية إلى سد أذنيه، وإلا كان سيهرب. عادت المرأة إلى المنزل، وجاء جار لرعايتها، لم تتوقف عن البكاء طوال الليل، واختلطت صرخاتها بكلمات غير مفهومة.

وصل الطبيب، أعلن أنها مجنونة، رقدت على سريرها لأسبوع، تارة تئنّ وتصرخ، يقول الناس وكأنها ضائعة وملعونة إلى الأبد، وتارة أخرى تذهب في غيبوبة، اعتقد الناس أن حزنها على فقدان زوجها أفقدها شيئاً من عقلها، لم يتوقع الطبيب أن تعيش. كنت مهتماً بهذه القصة، وطلبت من صديقي أن يكتب لي على فترات تفاصيل الحالة، عرفت أن المرأة استعادت قواها العقلية تدريجياً خلال ستة أسابيع، وبعد بضعة أشهر أنجبت ابناً أطلق عليه اسم جيرفاس، وللأسف كان ضعيف الذكاء. وخاطرت من دون أخذ الحذر بالتلميح إلى ذلك بما يشبه الحقيقة العلمية لبعض أصدقائي من العلماء، وما إن خرجت الكلمات من شفتي شعرت بالندم، لأني أفشيت السر العظيم في حياتي، ولكن بقدر كبير من الراحة الممزوجة بالسخط وجدت مخاوفي في غير محلها تماماً، حيث سخر مني أصدقائي في وجهي واعتبروني مجنوناً، وتحت وطأة غضب طبيعي، ضحكت في نفسي، فقد شعرت بالأمان وسط هؤلاء الحمقى، وكأنني قد بحت بكل ما أعرفه لرمال الصحراء.

والآن بما أنني أعرف الكثير قررت أن أعرف كل شيء، وكرست جهودي لفك رموز النقش الموجود على الختم الأسود، جعلت هذا اللغز الهدف الوحيد لوقت فراغي لسنوات.

وذلك لأن الجزء الأكبر من وقتي مكرس لمهام أخرى، ولم يكن بوسعي إلا بين حين وآخر أن أقتنص أسبوعاً لبحث جدي، ولو رويت التاريخ الكامل لهذا التحقيق الغريب فسيكون البيان مملاً للغاية، لأنه سيحتوي ببساطة على حساب لفشل طويل، وكنت مستعداً للبحث بفضل معرفتي عن النصوص القديمة. لديّ مراسلون بين جميع العلماء في أوروبا، بل وفي العالم، ولم أكن أصدق أنه في هذه الأيام يمكن لأي حرف، مهما كان قديماً ومربكاً، أن يقاوم لفترة طويلة الضوء الذي كنت سأسلطه عليه، ولكن ذلك استغرق في الواقع أربعة عشر عاماً قبل أن أنجح. في كل عام تزداد واجباتي المهنية، ويقل وقت فراغي، وهذا أعاقني كثيراً، وعندما أتذكر تلك السنوات، أندهش من النطاق الواسع لتحقيقي في الختم الأسود، جعلت مكتبي مركزاً، جمعت فيه نصوصاً للكتابات القديمة من جميع أنحاء العالم ومن جميع العصور، وقررت ألا يمر شيء دون أن أنتبه له، وأن أرحب بأضعف تلميح وأتابعه. ومع اختبار كل سر وإثبات عدم جدواه، بدأت أشعر باليأس، وأتساءل عما إذا كان الختم الأسود هو الأثر الوحيد لعرق اختفى من العالم ولم يترك أي أثر لوجوده، هلك، كما يقال أن أتلانتس قد هلكت في كارثة عظيمة، ربما غرقت أسراره تحت المحيط أو تشكلت في قلب التلال. أصابت هذه الفكرة حماسي بالبرود، ما زلت مثابراً ولكني لم أعد بنفس اليقين والإيمان.

جاءت فرصة لإنقاذي، كنت أقيم في بلدة كبيرة في شمال إنجلترا، وانتهزت الفرصة لزيارة المتحف الذي تم إنشاؤه منذ فترة في المكان. أمين المتحف أحد مراسليّ، عاينا أحد صناديق المعادن، ولفتت انتباهي عينة، قطعة من الحجر الأسود يبلغ حجمها حوالي أربع بوصات مربعة، ذكرني مظهرها بقياس الختم الأسود. تناولتها بلا مبالاة، وبدأت في تقليبها، ودهشت عندما رأيت نقوشاً أسفلها، أخبرت صديقي أن العينة أثارت اهتمامي وسأكون ممتناً جداً إذا سمح لي بأخذها معي إلى الفندق لبضعة أيام، لم يعترض وهرعت إلى غرفتي، ووجدت أن نظرتي الأولى لم تخدعني، فهناك نقشان، أحدهما بالخط المسماري العادي، والآخر بطابع الختم الأسود، وأدركت أن مهمتي قد أنجزت. وعملت نسخة طبق الأصل من النقشين.

وصلت إلى مكتبي في لندن، بدأت أقارن بين النقوش، هناك مشكلة، النقش الموجود على عينة المتحف، رغم أنه غريب لكنه لم يؤثر على بحثي، ولكنه جعلني أدرك سر الختم الأسود. وكان عليّ أن أدخل التخمينات في حساباتي، كنت أشك في رمز معين، وعلامة واحدة تكررت عدة مرات، حيرتني ليالي عديدة، وفي النهاية، ظهر السر أمامي باللغة الإنجليزية، وقرأت مفتاح التحول الرهيب للتلال. كتبت الكلمة الأخيرة، فمزقت قصاصة الورق بأصابع مرتجفة إلى قطع صغيرة، ورأيتها وهي تشتعل وتسود في النار، وبعدها سحقت الأغشية الرمادية المتبقية إلى مسحوق ناعم، ومنذ ذلك الحين لم أكتب هذه الكلمات أبداً.

لن أكتب أبداً العبارات التي تخبرني كيف يمكن أن يتحول الإنسان إلى الوحل الذي أتى منه، ويُجبر على ارتداء لحم الزواحف والثعابين. لم يتبقَّ الآن سوى شيء واحد، كنت أعرف؛ لكنني رغبت في التجربة، تمكنت من الحصول على منزل قرب التلال الرمادية، ليس بعيداً عن كوخ السيدة كرادوك وابنها جيرفاس. لست بحاجة إلى الخوض في التفاصيل التي لا يمكن تفسيرها، والتي حدثت هنا، حين كتبت هذه الكلمات كنت أعلم أني سأجد في جيرفاس كرادوك شيئاً من دم "الشعب الطيب"، وعرفت لاحقاً أنه واجه أقاربه أكثر من مرة في تلك الأرض المنعزلة. عندما تم استدعائي يوماً إلى الحديقة ووجدته في نوبة صرع يتحدث أو يهسهس بلغة الختم الأسود المروعة، سادت البهجة متغلّبةعلى الشفقة، وسمعت أسرار العالم السفلي تنفجر من شفتيه، وكلمة الرعب "إيشاكشار"، والتي يجب أن أُعفي عن تفسير معناها.

هناك حادثة واحدة لا يمكنني تجاهله، في فراغ استيقظت على صوت تلك الهسهسة التي أعرفها جيداً، وصلت إلى الغرفة الصغير، ووجدته يتشنج ويزيد ويتصارع على السرير، كأنه يكافح للهروب من قبضة الشياطين المتلوية. أخذته إلى غرفتي وأشعلت المصباح، رقد ملتوياً على الأرض، ينادي القوة الموجودة داخل جسده لتتركه، ورأيت جسده ينتفخ ويتمدد كمثانة، اسود وجهه، ثم فعلت ما كان ضرورياً وفقاً للتعليمات الموجودة على الختم، وضعت ترددي جانباً، وأصبحت

رجل علم يراقب ما يحدث، وكان المشهد الذي اضطررت لرؤيته مروعاً، يتجاوز قدرة التصور البشري وأكثر الخيالات رعباً، شيء ما دفع من الجسم على الأرض، ومد مجساً لزجاً يتمايل عبر الغرفة، وأمسك بالتمثال النصفي على الخزانة، ووضعه على مكتبي. وما إن انتهى الأمر بدأت أمشي طوال الليل، أرتجف ولوني شاحب والعرق يتصبب مني، حاولت أن أجادل نفسي، أقول أني لم أرَ شيئاً خارقاً للطبيعة، وأن الحلزون الذي أخرج مجساته وسحب التمثال كان شيئاً صغيراً رأيته وكبره عقلي، ولكن الرعب أبطل كل هذه الحجج وتركني محطماً مشمئزاً من نفسي لمشاهدتي ذلك.

لا يوجد الكثير مما يمكن قوله. سأذهب الآن إلى المحاكمة النهائية والمواجهة؛ لأنني قررت ألا يكون هناك نقص، وسأقابل "الشعب الطيب" وجهاً لوجه. سأستخدم الختم الأسود ومعرفة أسراره لمساعدتي، وإذا لم أعد من رحلتي، فلا داعي لاستحضار صورة مأساوية لمصيري هنا).

بعد أن توقفت قليلاً في نهاية بيان البروفيسور جريج، واصلت الآنسة لالي سرد قصتها بالكلمات التالية:

هذه هي القصة التي تركها البروفيسور خلفه، تكاد تكون غير قابلة للتصديق، انتهيت من قراءتها في وقت متأخر من الليل، وفي صباح اليوم التالي أخذت مورجان معي، وشرعنا في البحث في التلال الرمادية عن أي أثر للبروفيسور المفقود. لن أزعجك بوصف الخراب، هي منطقة أشبه بالوحدة المطلقة، تلال خضراء عارية مرقطة بأحجار جيرية رمادية تآكلت بفعل الزمن، وتحولت إلى أشباح غريبة من بشر ووحوش. وبعد ساعات من البحث المضني وجدنا ما أخبرتك به، الساعة والسلسلة، والمحفظة، والخاتم ملفوفين في قطعة من الرق الخشن. عندما قطع مورجان الأمعاء التي تربط الطرد ورأيت ممتلكات الأستاذ، انفجرت في البكاء، لكن مشهد الأحرف المخيفة للختم الأسود المتكررة على الرق جمدني في رعب صامت، وأعتقد أنني فهمت لأول مرة المصير الرهيب الذي حل بصاحب العمل الراحل.

لا يسعني إلا أن أضيف أن محامي البروفيسور جريج تعامل مع روايتي لما حدث على أنها قصة خيالية، ورفض إلقاء نظرة على الوثائق التي وضعتها أمامه، وكان هو المسؤول عن البيان الذي ظهر في الصحافة العامة، والذي مفاده أن البروفيسور جريج غرق، وجرفت جثته المياه إلى عرض البحر.

سكتت الآنسة لالي ونظرت إلى السيد فيليبس، كان غارقاً في تفكير عميق، رفع رأسه رأى صخب المساء في الساحة، الرجال والنساء يهرعون لتناول العشاء، والحشود حول قاعات الموسيقى، بدا له ضجيج الحياة الحقيقية غير واقعي، بالفعل هو خياليّ؛ وكأنه حلم تستطيع تذكّره في الصباح بعد الاستيقاظ، وقال: "أشكركِ على قصتكِ التي أثارت اهتمامي، وأشعر أني مقتنع بحقيقتها".

قالت السيدة غاضبة: "سيدي، أنت تحزنني وتسيء إليّ، أتعتقد أني سأضيع وقتي ووقتك باختلاق قصص خيالية على مقعد في ساحة ليستر؟".

"اعذريني آنسة لالي، أسأتِ فهمي، قبل أن تبدئي أدركت أن كل ما ستخبرينني سيُروى بحسن نية، لكن تجاربك لها قيمة أعلى بكثير من مجرد حسن النية، أكثر الظروف غرابة في روايتك تتناغم تماماً مع أحدث النظريات العلمية، أنا متأكد من أن الأستاذ لودج سيقدر التواصل معكِ، لقد سحرتني منذ البداية فرضيته الجريئة في تفسير عجائب الروحانية – كما تُسمى– لكن روايتك تضع الأمر برمته خارج نطاق الفرضية المجردة".

"للأسف يا سيدي، كل هذا لن يساعدني، لقد نسيتَ أني فقدت أخي في ظروف مروعة ومرعبة، أسألك مرة أخرى، ألم تره عندما أتيت إلى هنا؟ شاربه أسود، نظارته، نظراته خجولة، أتذكرك هذه التفاصيل بوجهه؟".

قال فيليبس، الذي نسي أمر الأخ المفقود: "يؤسفني القول إني لم أرَ شخصاً بهذه الأوصاف، لكن اسمحي لي أن أسألكِ بعض الأسئلة، هل لاحظتِ ما إذا كان الأستاذ جريج....".

"اعذرني سيدي، لقد تأخرت، أصحاب العمل ينتظرونني، أشكرك على تعاطفك معي، وداعاً".

قبل أن يستعيد السيد فيليبس إدراكه من الرحيل المفاجئ، اختفت الآنسة لالي عن ناظريه، اختفت بين الحشود، سار إلى منزله يتأمل ويفكر، شرب الكثير من الشاي، في الساعة العاشرة كان قد صنع كوبه الثالث من الشاي، ورسم الخطوط العريضة لعمل صغير سيطلق عليه اسم "الارتداد البروتوبلازمي".

حادثة البار الخاص

كان السيد دايسون يتأمل في كثير من الأحيان في لحظات غريبة القصة الفريدة التي استمع إليها في مقهى لا تورين، في المقام الأول لديه قناعة عميقة بأن كلمات الحقيقة كانت مبعثرة بيد بخيلة ومقتصدة على قصة السيد سميث ووادي الخليج الأسود، وثانياً، هناك حقيقة لا يمكن إنكارها، وهي الانفعال العميق الذي كان يشعر به الراوي، وإيماءاته على الرصيف، والتي كانت عنيفة للغاية بحيث لا يمكن أن تكون مفتعلة، وبدت فكرة رجل يتجول في لندن مسكوناً بالخوف من مقابلة شاب يرتدي نظارة سخيفة للغاية بالنسبة لدايسون، فبحث في ذاكرته عن سابقة في الروايات، ولكن دون جدوى. كان يزور المقهى الصغير في أوقات غريبة على أمل العثور على السيد ويلكنز هناك، ويراقب الرجال الكبار الذين يرتدون النظارات، ليتذكر وجه الرجل الذي رآه يندفع خارج متجر المخبز. ولكن كل تجواله وأبحاثه لم تسفر عن شيء ذي قيمة، وكان دايسون في احتياج إلى كل ما لديه من اقتناع راسخ بقدراته الفطرية في التحري، وقدرته القوية على اكتشاف الغموض لدعم مساعيه. كانت لديه قضيتان بين يديه، وفي كل يوم يمر فيه عبر الشوارع المزدحمة أو المهجورة، ويختبئ في الأحياء الغامضة، ويراقب من الزوايا، كان يفاجأ أكثر من أي وقت مضى بأن قضية العملة الذهبية كانت تتجنبه باستمرار، بينما بدا أن ويلكينز والشاب الذي يرتدي النظارات وكان يخشاه، قد اختفيا من الأرصفة.

كان يتأمل هذه المشكلات يوم أمس بحانة في ستراند، وكان الإصرار الذي أبداه الأشخاص الذين كان يرغب بشدة في مقابلتهم سبباً في إضافة لمسة مرارة إلى الكأس المتواضعة أمامه، كان وحيداً في مقصورة، ودون تفكير نطق بصوت عالٍ بثقل تأملاته: "يا له من أمر غريب! رجل يمشي على الرصيف خائف من شاب خجول يرتدي نظارة باستمرار".

وقبل أن ينهي الجملة ظهر رأس فوق الحاجز ثم اختفى، وبينما كان دايسون يتساءل عما قد يعنيه هذا، انفتح باب المقصورة ودخل رجل نبيل، حليق الذقن، مبتسم، وقال بأدب: "أعذرني يا سيدي، لأني تدخلت في أفكارك، ولكنك أدليت بملاحظة منذ دقيقة".

قال دايسون: "كنت في حيرة بشأن أمر تافه وفكرت بصوت عالٍ. بما أنك سمعت ما قلته وتبدو مهتماً، فربما يمكنك تخفيف حيرتي؟".

"إنها مصادفة غريبة، يجب أن نكون حذرين، أظنك يا سيدي لن تمانع في مساعدة تحقيق العدالة".

أجاب دايسون: "العدالة مصطلح فضفاض، لدرجة أنني أشعر أيضاً بالشك في تقديم إجابة، لكن هذا المكان غير مناسب تماماً لمثل هذه المناقشة، هل سترافقني إلى غرفتي؟".

"أنت لطيف جداً، اسمي بيرتون، ولكني آسف لأنني لا أحمل بطاقتي معي، هل تعيش بالقرب من هنا؟".

"على بعد عشر دقائق سيراً على الأقدام".

أخرج السيد بيرتون ساعته وبدا كما لو كان يجري حساباً سريعاً، وقال: "لديّ قطار يجب أن ألحق به، ولكنه متأخر على أية حال. لذا، إذا لم يكن لديك مانع سأذهب معك. أنا متأكد من أنه يجب أن نتحدث قليلاً".

كانت المسارح ممتلئة أثناء عبورهما ستراند، وبدا الشارع صاخباً، نظر دايسون حوله بحب، خطوط المصابيح الغازية متلألئة، وهج مذهل للضوء الكهربائي، العربات تومض جيئة وذهاباً مع رنين الأجراس، والحافلات المحملة، والركاب متلهفون، شكل له ذلك صورة ساحرة، وبرج سانت ماري لو ستراند الجميل من جهة، وآخر غروب للشمس من ناحية أخرى، سبباً في شكره، وأزهار الغرنوقي لاحظ السيد بيرتون نظرة الحب على وجه دايسون بينما يعبرون الشارع، وقال: "إنك تستطيع أن تجد المناظر الخلابة في لندن. في نظري، هذه المدينة عظيمة كما تراها أنت، ففيها الدراسة وحب الحياة، ومع ذلك قليل من يستطيعون اختراق حجب الرتابة والدناءة! قرأت في إحدى الصحف التي يقال إنها الأكثر تداولاً في العالم مقارنة بين جوانب لندن وباريس، وهي مقارنة يجب أن تفوز بجائزة نوبل كمثال للغباء والسخافة، تخيل أن هناك إنساناً يفضل

الجادات على شوارع لندن الكبيرة، ورجل يدعو إلى تدمير مدينتنا الأكثر سحراً، حتى يتم إعادة إنتاج التجانس الباهت لذلك القبر الأبيض المسمى باريس هنا في لندن. هذا أمر لا يصدق".

قال دايسون وهو ينظر إلى بيرتون باهتمام: "سيدي العزيز، أتفق معك في آرائك، ولكنني لا أستطيع أن أشاركك دهشتك. هل سمعت عن المبلغ الذي حصل عليه جورج إليوت مقابل قصيدة "رومولا"؟ هل تعرف حجم مبيعات "روبرت إلسمير"؟ هل تقرأ "تيتس" بانتظام؟ لذلك أشعر بالدهشة والامتنان لأن لندن لم تكن مكتظة بالسكان قبل عشرين عاماً، ولم تحول إلى جادات قبل عشرين عاماً، أمدح ذلك الخط السماوي المتعرج الرائع الذي يقف ضد الخضرة والزرقة الباهتتين، والسحب المتوهجة لغروب الشمس، ولكنني أدهش أكثر مما أمدح. أما بالنسبة لكنيسة سانت ماري لو ستراند، فإن الحفاظ عليها معجزة لا أكثر ولا أقل. شيء من الجمال الرائع مقارنة بأربع حافلات تسير بجانب بعضها، النتيجة واضحة، ألم تقرأ رسالة الرجل الذي اقترح إلغاء النظام الغامض بأكمله، والخطة القديمة لحساب عيد الفصح، لأنه لا يجب أن تكون عطلات ابنه في وقت مبكر مثل 20 مارس؟ هل نستمر في السير؟".

توقفوا عند زاوية شارع على الجانب الشمالي من ستراند، مستمتعين بالتناقضات وسحر المشهد، أشار دايسون إلى الطريق بإيماءة، وتجولا في الشوارع المهجورة، ووصلا إلى مسكن دايسون على حافة بلومزبري. جلس السيد بيرتون على كرسي مريح بذراعين بجوار النافذة المفتوحة، بينما أشعل دايسون الشموع وأخرج الويسكي والصودا والسجائر، وقال دايسون: "قالوا لي إن هذه السجائر جيدة، لكني لا أعرف شيئاً عنها. أؤمن أن هناك نوعاً واحداً فقط من التبغ، وهو الشاج. أعتقد أنني لا أستطيع إغراءك بتجربة الغليون واحد؟".

رفض السيد بيرتون العرض مبتسماً، وأخرج سيجارة من العلبة، دخنها حتى منتصفها، ثم قال متردداً: "لطف منك أن تستضيفني، الحقيقة هي أن المصالح المعنية خطيرة جداً بحيث لا يمكن مناقشتها في حانة، فكما رأيت بنفسك هناك مستمعون، أعتقد أن الملاحظة التي سمعتها منك كانت شيئاً ما حول غرابة فرد يتجول في لندن مرتعب من شاب يرتدي نظارة".

"نعم، هذا هو الأمر".

"حسناً، أيمكنك أن تخبرني بالظروف التي أدت إلى هذا التفكير؟".

واستعرض بإيجاز المغامرة في شارع أكسفورد، مركزاً على عنف إيماءات السيد ويلكنز، ولكنه أخفى الحكاية التي رواها في المقهى، وقال دايسون في مختتماً روايته: "أخبرني أنه يعيش في رعب دائم من مقابلة هذا الرجل؛ وتركته عندما اعتقدت أنه هادئ بما يكفي للاعتناء بنفسه".

قال السيد بيرتون: "وهل رأيت هذا الشخص الغامض؟".

"نعم".

"هل يمكنك وصفه؟".

"حسناً، بدا لي شاباً شاحباً ومتوتراً، شاربه صغير أسود، ويرتدي نظارة كبيرة نوعاً ما".

"هذا مذهل! يجب أن أخبرك أن اهتمامي بالأمر يرجع إلى هذا، لست خائفاً من مقابلة شاب أسمر يرتدي نظارة، ولكن هناك شخص يحمل هذه الأوصاف يفضل عدم مقابلتي، ولا يمكن أن يكون هناك شخصان متطابقان تماماً، أحدهما سبب للرعب، والآخر كما أتصور حريص للغاية على الابتعاد. لكن هل رأيت هذا الرجل بعدها؟".

"لا، بحثت عنه كثيراً ولم أجده، ربما غادر لندن أو إنجلترا أيضاً بسبب هذا الأمر".

"لا أظن يا سيد دايسون، من الإنصاف أن أروي لك قصتي بعد أن استمعت إلى قصتك، أعمل كوكتيل للتخف والأشياء الثمينة، إنها وظيفة غريبة، أليس كذلك؟ لم أنشأ على هذه المهنة؛ بل انغمست فيها تدريجياً. كنت مغرماً بالأشياء الغريبة

والنادرة، وبحلول سن العشرين جمعت نصف دزينة من الأشياء. أشياء نادرة كثيرة يعثر عليها المزارعون، وستندهش إذا أخبرتك بما رأيته يظهر من المحراث. كنت أعيش في الريف وأشتري أي شيء يحضره لي المزارعون، وكانت لديّ أغرب مجموعة من الأشياء عديمة الفائدة، وهكذا اكتسبت رائحة المهنة، وهذا يعني كل شيء. في وقت لاحق خطر ببالي أني قد أستفيد من معرفتي وأضيف إلى دخلي، وجبت أغلب أنحاء العالم، مرت بين يدي أشياء ثمينة للغاية، واضطررت إلى الدخول في مفاوضات صعبة ودقيقة. ربما سمعت عن حجر أوبال الخان، الذي يطلق عليه في الشرق "حجر الألف لون واللون الواحد".

حسناً، ربما كان الاستيلاء على هذا الحجر أعظم إنجازاتي، وأسميه حجر الألف كذبة والكذبة الواحدة، لأنني اضطررت إلى اختراع دورة من الفولكلور قبل أن يوافق الرجل الذي يملكه على بيعه، ومولت رواة القصص المتجولين، الذين رووا حكايات لعب فيها الأوبال دوراً مخيفاً، واستأجرت رجلاً مقدساً زاهداً عظيماً، ليتكهن بنبوءات سيئة حول من يملك الحجر بلغته الرمزية الشرقية، باختصار أرعبت الرجل حتى فقد عقله. وكما ترى هناك مجال للدبلوماسية في التجارة التي أنخرط فيها، يجب أن أكون حذراً دائماً، وأدرك أنه ما لم أراقب كل خطوة وأزن كل كلمة فلن تدوم حياتي لفترة أطول.

في إبريل الماضي علمت بوجود جوهرة أثرية ثمينة للغاية في جنوب إيطاليا، يحوزها أشخاص يجهلون قيمتها الحقيقية، ومن خلال تجربتي أدرك أن التعامل مع الجهلاء هو الأصعب، فقد التقيت بمزارعين يعتقدون أن شلناً من عهد جورج الأول اكتشاف لا يقدر بثمن، وكل الهزائم التي لحقت بي كانت على يد أشخاص من هذه الشاكلة. عندما بدأت أفكر في الموضوع أدركت أن الحصول عليها يتطلب أعلى أشكال الدبلوماسية، وقد أحصل عليها بعرض مبلغ يقارب قيمتها الحقيقية لأنتهي، ولكني أعلم أن ذلك لن ينجح، لأن عرض مبلغ كبير يثير جشع هؤلاء الأشخاص، ويقولون في أنفسهم أن عرض هذا المبلغ يعني أن قيمة البضاعة تساوي ضعفه على الأقل، عندما يتعلق الأمر بقطعة عادية مثل إبريق قديم، أو صندوق منحوت، أو مصباح نحاسي غريب فإن المرء لا يهتم كثيراً، فيخسر المالك لجشعه ويغادر جامع التحف مستهزئاً.

رغبت كثيراً في امتلاك هذه الجوهرة، وكان هدفي أن أضع جزءاً من مائة من قيمتها، فتعين عليّ أن أستنفر كل قدراتي، اعتقدت أني لن أستطيع أن أنهي الأمر مفردي فقررت أن أستعين بمساعدي ووثقت فيه، وهو شاب يُدعى ويليام روبنز، وكانت خطتي أن يتنكر في هيئة تاجر صغير للأحجار الكريمة، وكان روبنز يتحدث الإيطالية قليلاً، ويسبقني إلى مالك الجوهرة ويحاول رؤيتها، وقد يعرض بعض المجوهرات المقلدة للبيع، ولكني تركت الأمر لنقرر ما الذي سنفعله وقتها، وبعدها تبدأ مهمتي، لن أزعجك بقصة حُكيَت مرتين. بدأ تنفيذ الخطة، غادر روبنز إلى إيطاليا يحمل أحجاراً كريمة غير مصقولة ومجوهرات وخواتم اشتريتها في برمنغهام. لحقته بعد أسبوع، ولكني تمهلت، فوصلت إلى وجهتنا المشتركة بعد أسبوعين. هناك فندق جميل في المدينة، استفسرت من صاحبه إن كان هناك العديد من الغرباء في المكان، فأخبرني أنهم قليلون، وسمع أن هناك رجلاً إنجليزياً يقيم في حانة صغيرة، وقال إنه بائع متجول، يبيع الحلي الجميلة بثمن بخس، ويريد شراء الأشياء القديمة. استمتعت بالحياة لخمسة أو ستة أيام، فقد خططت أن أجعل الناس يعتقدون أني ثري للغاية، وكنت أعلم أن الإسراف في وجباتي، وثمن كل زجاجة نبيذ أشربها، لن تُترك – كما يقول سانشو بانزا– لتتعفن في صدر صاحب المنزل.

كنت محظوظاً، ففي نهاية الأسبوع تعرفت على السيد ميليني صاحب الجوهرة في المقهى، وبفضل كرمه وحسن حديثي دعاني لمنزله، وفي زيارتي الثالثة أو الرابعة، تمكنت من جعل الإيطاليين يتحدثون عن البائع المتجول الإنجليزي، قالوا إنه يتحدث إيطالية بشكل سيء، وقالت السيدة ميليني: "ولكن هذا لا يهم، لأنه يمتلك أشياء جميلة، ويبيعها بأسعار رخيصة جداً".

قلت: "آمل ألا يخدعكم، فكما أعرف فإن الإنجليز يتجنبون التعامل مع مثله، يتباهون بأن بضائعهم رخيصة جداً، وهي في الواقع ضعف سعرها في المتاجر".

لم يريدوا تصديق ذلك، وأصرت السيدة ميليني على أن تريني الخواتم الثلاثة والسوار الذين اشترتهم من البائع المتجول، وأخبرتني بالسعر الذي دفعته، ففحصت السلع بعناية واعترفت لها بأنها قد عقدت صفقة جيدة، فقد باعها روبنز المجوهرات

بنصف قيمتها السوقية تقريباً، أبديت إعجابي بالحلي وأنا أعيدها إلى السيدة، وألمحت إلى أن البائع المتجول قد يكون أحمقَ. بعد يومين جلست في المقهى مع السيد ميليني، وعاد إلى ذكر البائع المتجول، وقال إنه عرض عليه قطعة صغيرة وقدم لها مقابلاً جيداً، فقلت: "سيدي العزيز، آمل أن تكون حذراً. فقد أخبرتك أن التجار المتجولين لا يتمتعون بسمعة طيبة في إنجلترا، ورغم بساطته فإني أخشى أن يكون هذا الرجل مخادعاً، هل لي أن أسألك ما القطعة التي عرضتها عليه؟".

فقال إنه حجر صغير جميل نُقشت عليه بعض الأشكال، ويقول الناس إنه قديم، قلت: "أود أن أفحصه؛ فقد رأيت الكثير من هذه الأحجار الكريمة. لدينا مجموعة رائعة منها في متحفنا في لندن".

أطلعوني على القطعة، أمسكت الجوهرة التي كنت أشتهيها بشدة بين أصابعي، نظرت إليها ببرود، ثم وضعتها بلا مبالاة على الطاولة، وقلت: "هل تمانع في إخباري يا سيدي، كم عرض عليك زميلي الإنجليزي مقابلها؟".

قال: "حسناً، تقول زوجتي إنه مجنون، فقد قال إنه سيعطيني عشرين ليرة مقابلها".

"نظرت إليه بهدوء، وأخذت الجوهرة وتظاهرت بفحصها في الضوء بعناية أكبر؛ قلبتها مرة تلو الأخرى، ثم أخرجت عدسة مكبرة من جيبي، وبدا الأمر وكأنني أبحث عن كل ما في النقش بدقة، قلت: "سيدي العزيز، أوافق السيدة ميليني، إذا كانت هذه الجوهرة أصلية فإنها تستحق بعض المال؛ ولكنها مزيفة بشكل سيء، وهي لا تساوي عشرين سنتاً، أعتقد أنها زيفت في وقت ما من القرن الماضي وبيد غير ماهرة".

قالت ميليني: "إذاً فمن الأفضل أن نتخلص منها، كنت أعلم أنها لا تساوي شيئاً، أشفق على البائع المتجول، ولكن يجب على المرء أن يعرف أصول حرفته، أخبره أننا سنأخذ العشرين ليرة".

قلت: "لو سمحتِ لي، الرجل يحتاج إلى درس، وسيكون من الإحسان أن نعطيه إياه، أخبره أنك لن تقبل أقل من ثمانين ليرة، وسأستغرب إن لم يوافق".

بعد يوم أو يومين، سمعت بمغادرة البائع المتجول الإنجليزي، بعد أن أفسد أذواق أهل الريف بمجوهرات برمنغهام الصناعية، وأعترف أن الأزرار الذهبية التي تشبه الفاصولياء، والسلاسل الفضية التي تشبه سلاسل الكلاب، ودبابيس الأحرف الأولى، أثقلت ضميري، لا أبرئ نفسي، فقد ساهمت بشكل غير مباشر في إفساد ذوق شعب بسيط، وآمل أن الهدف الذي كنت أسعى إليه قد يوازن في النهاية هذه التهمة الثقيلة. بعدها بفترة قصيرة ودعت أسرة ميليني، وأخبرني السيد ميليني ضاحكاً أن خطتي قد نجحت، هنأته على صفقته، وذهبت، وقد تمنيت من السماء أن ترسل العديد من الباعة المتجولين إليه. لم يحدث شيء مثير للاهتمام أثناء عودتي، اتفقت مع روبنز أن نلتقي في مكان معين ويوم معين، ذهبت إلى الموعد وكلي ثقة، استوليت على الجوهرة ولم يتبقّ سوى جني ثمار النصر.

يؤسفني أن أهز الثقة في البشر، وأنا متأكد أنك تمتلكها، ولكني مضطر لإخبارك، فلم أرَ روبنز أو الجوهرة بعدها، وما عرفته أنه وصل لندن، حيث شوهد قبل ثلاثة أيام من وصولي من قبل أحد معارفي وهو يشرب مشروبه المفضل، فور إيل، في الحانة حيث التقينا الليلة. منذ ذلك الحين لم يسمع عنه أحد، آمل أن تعذرني الآن على فضولي بشأن معلومات ومغامرات الشباب ذوي البشرة الداكنة الذين يرتدون النظارات. أنا متأكد من أنك ستتعاطف معي، فقدت متعة الحياة، يضايقني أني أنقذت واحدة من أكثر العينات الكاملة والرائعة للفن القديم من أيدي أشخاص جاهلين معدومي الضمير، وسلمتها لرجل يفتقر إلى أبسط مقومات الأخلاق التجارية".

قال دايسون: "سيدي العزيز، أثني على أسلوبك؛ فقد أثارت مغامراتك اهتمامي كثيراً، ولكن سامحني، لقد استخدمت للتو كلمة الأخلاق؛ ألا يعترض البعض على أساليبك في العمل؟ هناك عيوب أخلاقية فيما قلته وتبنيته، أستطيع أن أتخيل الشيطان وهو يتراجع في ذهول أمام خطتك، ويعلن أنها عديمة الضمير وغير نزيهة".

سكب السيد بيرتون لنفسه المزيد من الويسكي، وقال: "تحفظاتك تسليني، لقد خضت عميقاً في هذه المسائل الأخلاقية،

عليّ أن أقوم بذلك، كما اضطررت إلى إتقان المحاسبة، بدون هذين الأمرين لن أستطيع إدارة عملي، أشعر بالحزن عندما أقف في الشوارع وأتأمل الناس وهم يعملون، وأتساءل كم واحد منهم يلتزم بنظام أخلاقي مبرر. رغم أنك تدرس الحياة إلا أنك لم تزن المسألة حتى الآن. رغم أنك تخترق الحجب والأقنعة في كوميديا الإنسان، إلا أنك تحكم من خلال اتفاقيات فارغة وعملة مزيفة يُسمح لها بالمرور كعملة حقيقية. اسمح لي أن ألعب دور سقراط؛ لن أعلمك شيئاً لا تعرفه. سأقوم فقط بإزالة أغلفة التحيز والمنطق السيء، وأريك الصورة الحقيقية في روحك. هل توافق على أن السعادة شيء ما؟".

قال دايسون: "بالتأكيد".

"وهل السعادة مرغوبة أم غير مرغوبة؟".

"مرغوبة بالطبع".

"وماذا نسمي الرجل الذي يعطي السعادة؟ أليس هو إنساناً خيراً؟".

"أعتقد ذلك".

"وهل مثل هذا الشخص يستحق الثناء، ويزداد الثناء بقدر ما يسعد الأشخاص الذين يسعدهم؟".

"بكل تأكيد".

"لذلك فإن من يجعل أمة بأكملها سعيدة، يستحق الثناء إلى أقصى حد، والفعل الذي يمنح به السعادة هو أعلى الفضائل؟".

قال دايسون، الذي وجد شيئاً رائعاً في شخصية زائره: "يبدو الأمر كذلك يا بيرتون".

"بالضبط؛ ستجد أن الاستنتاجات العديدة حتمية. حسناً، طبّقها على القصة التي رويتها لك، لقد منحت السعادة لنفسي بالحصول – كما اعتقدت– على الجوهرة، ومنحت السعادة لعائلة ميليني بالحصول على ثمانين ليرة بدلاً على شيء لا قيمة له مطلقاً في ذهنهم، وأنوي أن أمنح السعادة للأمة البريطانية كلها ببيع القطعة للمتحف البريطاني، بالإضافة إلى السعادة التي سأحصل عليها لو ربحت تسعة آلاف في المائة، أؤكد لك، أن روبنز يعد متدخلاً في الكون والنظام العادل للأشياء، أنا رسول لأفضل الأخلاق".

قال دايسون: "يبدو أن ما تقدمه له قيمة كبيرة، أعترف بأنني مجرد هاوٍ في الأخلاق، بينما أنت – كما تقول– بذلت أقصى جهدك في الإجابة على هذه الأسئلة المحيرة والمثيرة للشكوك، أفهم قلقك من مقابلة روبنز المضلل، وأهنئ نفسي على الصدفة التي جعلتنا نتعارف، لكنك ستعذرني على عدم ضيافتي، فالساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف، وأعتقد أنك ذكرت قطاراً".

"شكراً جزيلاً لك يا سيد دايسون، لديّ وقت كافٍ، سأزورك في أحد الأمسيات إذا سمحت لي. تصبح على خير".

الخيال الزخرفي

في غضون بضعة أسابيع، اعتاد دايسون الزيارات المتكررة والمفاجئة التي يقوم بها السيد بيرتون العبقري، وكان مرشداً في المسائل المعقدة للحياة، زياراته تخيف دايسون وتسعده في الوقت نفسه، لم يعد قادراً على الجلوس في مكتبه بسلام حين يبدأ في مشاريعه الأدبية، فقد يقاطعه بيرتون في أية لحظة، كل منها بمثابة تحفة فنية، ويسعد دايسون بالآراء الأصيلة، رغم أن حجج بيرتون واستدلالاته مشوبة بالمغالطات إلا أنه يفرح لغرابتها، ويرحب به بصدق دائماً، وأول سؤال يسأله له عن روبنز عديم المبادئ، ويشعر بخيبة الأمل عندما يخبره بيرتون أنه لم يلتقِ به، ويريد أن ينتقم من انتهاكه للأخلاق وخيانته الوقحة عاجلاً أم آجلاً.

في إحدى الأمسيات جلسا يناقشان إمكانية وضع قواعد للدبلوماسية الاجتماعية للجيل الحالي وللمجتمع الحديث المعقد للغاية، مثل التي أعطاها اللورد بيكون لرجال بلاط الملك جيمس الأول، قال السيد بيرتون: "إنه كتاب يستحق التأليف، ولكن من لديه القدرة على تأليفه؟ إن الناس يتوقون إلى مثل هذا الكتاب، وسيجلب الثروة لناشره. إن مقالات بيكون رائعة لكنها لم تعد ذات تطبيق عملي الآن، ولا يجد الاستراتيجي الحديث إلا القليل من الفائدة في أطروحة "في شأن العسكريين"، التي كتبها رجل فلورنسي في القرن الخامس عشر. إن الظروف الاجتماعية في زمن بيكون ليست أكثر اختلافاً من ظروفنا، والقواعد التي وضعها بإتقان لرجال البلاط والدبلوماسيين في عصر جيمس الأول لن تفيدنا كثيراً في الصراع العنيف اليوم. الحياة للأسف تدهورت، وهي لا تتيح مجالاً للضربات الرقيقة التي كانت ترفع من شأن رجال الدولة سابقاً، باستثناء بعض الأعمال مثل عملي، حيث تتاح الفرص بين الحين والآخر، أصبحت الحياة صراعاً عنيفاً، الرجال ما زالوا يرغبون في تحقيق النجاح، ولكن ما وسيلتهم للوصول؟ إنها مجرد تقليد، وليس تقليداً لطيفاً لفنون بائع الصابون ومالك الخبز، عندما أفكر في هذه الأشياء، عزيزي دايسون، أعترف أنني أستشعر اليأس من قربي".

"إنك متشائم للغاية يا صديقي العزيز، فإنك تضع معاييرَ مرتفعة، أتفق معك أن العصر الحالي تدهور في كثير من النواحي، وأعترف بانتشار البؤس، أصبح الأمر يتطلب الكثير من الفلسفة لاستخراج الجميل من شارع كروميل أو ضمير غير الملتزمين، النبيذ الأسترالي ذو الطابع البورغندي الرائع، والروايات، والصحافة الشعبية، هذه الأشياء تؤدي إلى الاكتئاب. ومع ذلك، لدينا مزايانا، أمامنا أعظم مشهد رآه العالم على الإطلاق، لغز الشوارع التي لا تحصى ولا نهاية لها، والمغامرات الغريبة التي تنشأ في هذا الزحام المعقد من المصالح، إن من وقف في طرق الضواحي ورأى الشوارع تمتد أمامه لامعة وخالية ومقفرة في الظهيرة لم يعش عبثاً. مثل هذا المنظر أكثر روعة من أي منظر لبغداد أو القاهرة الكبرى، وبغض النظر عن القصة المسلية للجوهرة، فمن المؤكد أنك مررت بالعديد من المغامرات الفريدة في حياتك المهنية؟".

"ربما لم يكن الأمر بهذا القدر من السوء كما تتخيل؛ فقد كان الجزء الأكبر من عملي عادياً مثل تجارة الأقمشة، ولكن بالطبع تحدث أشياء من وقت لآخر، مرت عشر سنوات منذ أن أسست وكالتي، وأظن أن وكيل العقارات الذي عمل في هذا المجال لمدة مماثلة قد يروي لك بعض القصص الغريبة، ولكن يجب أن أحكي لك بعض تجاربي في إحدى الأمسيات".

قال دايسون: "لماذا لا نلتقي الليلة؟ هذا المساء يبدو مناسباً لقصص غريبة، انظر إلى الشارع؛ يمكنك أن تراه إذا مددت رقبتك من الكرسي الذي تجلس عليه، أليس هذا ساحراً؟ صف المصابيح المزدوج الذي يزداد اقتراباً كلما بعدت المسافة، والخطوط العريضة الضبابية لشجرة الدلب في الساحة، وأضواء عربات الخيول في ذهابها وإيابها، والسماء الصافية الزرقاء اللامعة. هيا لنسمع قصة واحدة من قصصك المئة".

وبهذه الكلمات بدأ السيد بيرتون حديثه: "عزيزي دايسون، يسعدني أن أسليك".

رواية الخادمة الحديدية

الحدث الأكثر غرابة الذي أتذكره وقع منذ خمس سنوات تقريباً، كنت في بداية رحلتي في مجال الأعمال، أذهب إلى مكتبي بانتظام، لكني لم أنجح في إقامة شبكة علاقات في هذا العمل، فكان لدي الكثير من وقت الفراغ – لم أفكر من قبل بإزعاجك بتفاصيل حياتي الخاصة، لأني أرى أنها غير مهمة– باختصار كنت أملك دائرة كبيرة من المعارف، ولم أحتر أبداً بشأن كيفية قضاء أمسياتي، كنت محظوظاً بوجود أصدقاء في معظم طبقات النظام الاجتماعي، وأرى أنه لا شيء أسوأ من البقاء في دائرة أصدقاء من طبقة اجتماعية واحدة، حيث تكرر الأفكار نفسها باستمرار، أحاول دائماً أن أجد أشخاصاً جديدين تحوي أدمغتهم أفكاراً جديدة، فقد يكتسب المرء معلومات جديدة حتى من محادثة في حافلة. ومن بين معارفي طبيب شاب يعيش في ضاحية نائية، وأتحمل مشاق رحلة القطار البطيء للغاية لأستمتع بأحاديثه، في إحدى الأمسيات استغرقنا في الأحاديث ولم نشعر بالوقت، وعندما نظرت إلى الساعة صدمت لأنه لم تتبقَّ لديّ سوى خمسِ دقائق لألحق بالترام الأخير، هرعت إلى قبعتي وعصاي واندفعت بأقصى سرعة في الشارع، لكن هذا لم يجد نفعاً، فقد سمعت صفارة القطار تبتعد، وقفت عند باب المحطة، ورأيت بعيداً على الخط الطويل المظلم للجسر ضوءاً أحمر يلمع ويختفي، وجدت أحد الحمالين وسألته: "كم المسافة إلى لندن؟".

"حوالي تسعة أميال إلى جسر واترلو". وابتعد.

أمامي شارع الضواحي الطويل، ممتد بلا نهاية بصفوف من المصابيح الوامضة، الهواء ملوث برائحة خفيفة للطوب المحروق، لم يكن المنظر مبهجاً بأيّة حال من الأحوال، وعليّ أن أمشي لتسعة أميال في هذه الشوارع المهجورة مثل شوارع بومبيي. أمشي مرهقاً أنظر إلى الشوارع وامتداداتها وتقاطع الطرق، والمنازل والخرائب وأكوام القمامة وحقول فقدت سحرها. المشي وحيداً في أماكن صامتة جعل الخيال ينمو بداخلي وشعرت بسحر اللانهائية، وبضخامة هائلة كما في الفراغ الخارجي للكون، أنتقل من مجهول إلى مجهول. طريقي محدد بمصابيح تشبه النجوم، وعلى الجانبين عالم مجهول، يعيش فيه آلاف البشر، شوارع تؤدي إلى شوارع، كما لو كانت تؤدي إلى نهاية العالم.

في البداية كانت الطريق محاطة بمنازل رتيبة، جدار من الطوب الرمادي تخترقه نوافذ من طابقين قريبة من الرصيف، ومع مرور الوقت لمست تحسناً، حدائق تكبر كلما تقدمت، ثم بدأت أبنية الضواحي تعلن عن نفسها، على مداخل بعضها أسدان من الجص لحمايتها، وتغلبت رائحة الأزهار على دخان الطوب المحترق. طريق صاعد فوق تل، وبينما كنت أنظر إلى شارع جانبي رأيت نصف القمر يشرق فوق أشجار الدلب، وعلى الجانب الآخر كما لو أن سحابة بيضاء سقطت، الهواء كما لو كان معطراً بالبخور، فأشجار مايو في أوج ازدهارها. واصلت السير بعناد، مستمعاً إلى قعقعة عجلات عربة. يسكن هذه المنطقة رجال يذهبون إلى المدينة صباحاً ويعودون مساء، ونادراً ما تدخل عربة، أكملت طريقي فشاهدت رجلاً يتقدم لملاقاتي، يبدو أنه يتجول بلا هدف، وكان يرتدي ملابس لا تصلح للمكان أو الوقت، معطف عادي وربطة عنق سوداء وقبعة حريرية. التقينا تحت المصباح، وكما يحدث غالباً في هذه المدينة العظيمة، وجد عابران نفسيهما وجهاً لوجه، فسألته: "أعتقد أنك السيد ماثياس؟".

"نعم، وأنت فرانك بيرتون، أتعلم أنك تحمل اسماً مسيحياً، هل لي أن أسألك إلى أين أنت ذاهب؟".

شرحت له الموقف، وأني عبرت منطقة مجهولة لي مثل أعمق بقاع أفريقيا، واختتمت حديثي: "أعتقد أن لديّ خمسة أميال فقط لأقطعها".

"هراء، يجب أن تأتي معي إلى منزلي فهو قريب، وستجد سريراً أفضل من المشي لمسافة خمسة أميال".

استغربت من وده، فقد كانت معرفتي به عابرة في النادي ولم نتحادث إلا بضع مرات، حيث كان يجلس صامتاً لساعات، لا يقرأ ولا يدخن، وبين الحين والآخر يبلل شفتيه بلسانه ويبتسم بغرابة، لم يجذبني أبداً، وكنت أفضل أن أواصل سيري، لكنه مسك بذراعي وقادني إلى شارع جانبي وتوقف أمام باب في جدار عالٍ، مررنا عبر الحديقة المضاءة بالقمر تحت ظل

أسود لشجرة أرز قديمة، ودخلنا إلى منزل قديم من الطوب الأحمر، كنت متعباً، تنهدت بارتياح عندما جلست على كرسي جلدي كبير، فقد تعبت من المشي على الحصى اللعين الذي ينثرونه على الأرصفة في تلك الضواحي؛ لقد كان المشي عقاباً، ومسافة الأربعة أميال التي قطعتها أكثر إرهاقاً من المشي لعشرة أميال على طريق ريفي، قلبت أنظاري في الغرفة بفضول، مصباح مظلل يلقي دائرة من ضوء ساطع على كومة من الأوراق ملقاة على خزانة قديمة من القرن الماضي، وباقي الغرفة يغرق في الظلام والغموض، وما أدركته أنها طويلة ومنخفضة، ومليئة بأشياء غير واضحة قد تكون أثاثاً. جلس السيد ماثياس ونظر حوله بابتسامته الغريبة. كان غريب المظهر، حليق الذقن، وأبيض الشفتين. أعتقد أن عمره بين الخمسين والستين. وقال: "أنت هنا الآن، هل كنت تعلم أني أجمع التحف؟ لقد كرست سنوات عديدة لجمعها، وأعتقد أنها غريبة جداً، ولكننا بحاجة إلى إضاءة أفضل".

تقدم إلى منتصف الغرفة وأشعل مصباحاً معلقاً في السقف، ومع لمعان الضوء الساطع حول الفتيل بدا الأمر وكأن الرعب ينبعث من كل زاوية، إطارات خشبية كبيرة مزودة بأجهزة معقدة من الحبال والبكرات على الحائط، عجلة شكلها غريب بجوار شيء يشبه شبكة شواء حديدية عملاقة، طاولات صغيرة تتلألأ بأدوات فولاذية لامعة موضوعة بلا مبالاة كما لو كانت جاهزة للاستخدام، براغي وكماشة يلقيان ظلالاً قبيحة، وفي زاوية أخرى منشار بأسنان خشنة حادة وقاسية. وقال السيد ماثياس: "إنها أدوات تعذيب وموت، وقد استُخدمت، وبعضها عبارة عن نسخ طبق الأصل من نماذج قديمة، تلك السكاكين كانت تستخدم لسلخ الجلد، والإطار رف للتعذيب وهو نموذج رائع جداً، انظر إلى هذا، إنه من البندقية، وهذا الطوق الذي يشبه حدوة حصان كبيرة، يجلس عليه الضحية إن أمكننا تسميته بذلك، وتثبت حدوة الحصان حول رقبته، وتُربط النهايتان بشريط حريري، ويبدأ الجلاد في تدوير مقبض متصل بالشريط، وتتقلص الحدوة تدريجياً حتى يُخنق الرجل. كل ذلك كان يحدث بهدوء، في واحدة من تلك الغرف الغريبة تحت الأسقف. هذه الأشياء كلها أوروبية، والشرقيون أكثر براعة، أنظر إلى اختراعات الصينيين، أسمعت عن "الموت الثقيل"؟ أجلس هنا لساعات أتأمل المجموعة. أتخيل وجوه الذين عانوا، وجوه هزيلة من الألم ومبتلة بعرق الموت، تظهر بوضوح في الظلام، وأسمع أصداء صراخهم طلباً للرحمة. يجب أن أريك أحدث مقتنياتي، تعالَ إلى الغرفة المجاورة".

تبعت السيد ماثياس وكأنني في حلم، من أثر التعب من المشي والوقت المتأخر وغرابة الأمر كله، ولم يكن شيء ليفاجئني، الغرفة الثانية مثل الأولى، مليئة بأدوات مخيفة، ولكن تحت المصباح منصة خشبية عليها تمثال كبير لامرأة عارية مصنوعة من البرونز الأخضر، ذراعاها ممدودتان، ابتسامة على شفتيها، من المفترض أن يكون تمثالاً لفينوس، ولكن هناك شيء شرير وقاتل في شكلها، نظر إليها السيد ماثياس بارتياح، وقال: "أليست تحفة فنية رائعة؟ إنها مصنوعة من البرونز، ويطلق عليها اسم "الخادمة الحديدية"، حصلت عليها من ألمانيا، ووصلتني هذا المساء، ولم أجد وقتاً لفتح خطاب الإرشادات، هل ترى ذلك الزر الصغير جداً بين الثديين؟ حسناً، يتم ربط الضحية بالخادمة الحديدية، ويُضغط على الزر، حينها تُغلق الذراعان حول الرقبة ببطء، يمكنك تخيل النتيجة".

يربت ماثياس على التمثال بحنان أثناء حديثه فابتعدت، أدرت وجهي بعيداً فقد شعرت بالغثيان من الرجل ومجموعته المقززة، سمعت نقراً خفيفاً لم أعره اهتماماً، لم يكن أعلى من صوت دقات الساعة، ثم سمعت أزيزاً مفاجئاً، ضجيج آلات تتحرك، استدرت. لن أنسَى تعبير الألم البشع على وجه ماثياس بينما كانت الذراعان القاسيتان تضيقان حول رقبته، صراع وحشي، وكأنه وحش في الفخ، ثم صرخة انتهت بأنين مختنق، تحول الأزيز فجأة إلى طنين ثقيل، حاولت بكل قوتي أن أفتح ذراعي التمثال البرونزية، أحاول فصلهما، لم أستطع، وانحنى الرأس ببطء، وكانت الشفتان الخضراوان للخادمة على شفتي ماثياس!

كان عليّ أن أحضر التحقيق، تم العثور على الرسالة المرفقة بالتمثال غير مفتوحة على الطاولة، حذرت الشركة الألمانية عميلها، عليه توخي أقصى درجات الحذر عند لمس الخادمة الحديدية، حيث كانت في حالة عمل.

لعدة أسابيع أسعد السيد بيرتون دايسون بمحادثاته الممتعة، المتنوعة بالحكايات، والمليئة بالمغامرات الغريبة، ولكنه في النهاية

اختفى فجأة كما ظهر، وفي زيارته الأخيرة تمكن من سرقة نسخة من كتاب "التشريح" لصديقه السابق، وبعد أن فكر دايسون في الأمر كله، والتناقضات الكبيرة في حديث صديقه، توصل إلى استنتاج أن قصصه كانت خيالية، وأن "الخادمة الحديدية" لم تكن موجودة إلا في عالم الخيال الزخرفي!

الناسك في بايزووتر

من بين الأصدقاء الكثر الذين حظوا بمتعة بلقاء السيد دايسون كان السيد إدغار راسل، الواقعي والمكافح المجهول، الذي كان يسكن غرفة صغيرة في الطابق الثاني من منزل في أبينغدون غروف في نوتينغ هيل. عند الانعطاف من الشارع الرئيسي والمشي لخطوات إلى الأمام يشعر بهدوء كالنعاس يجعل القدمين تميلان إلى التباطؤ؛ هذا هو جو أبينغدون غروف. المنازل تقع في الخلف قليلاً، وتزهر في حدائقها أزهار الليلك واللابيرنوم والماي الأحمر مبتهجة في مواسمها، وهناك زاوية فيها منزل قديم تمكن من الاحتفاظ بحديقة خلفية واسعة، مسورة تضوع منها رائحة خضرة لطيفة بعد أمطار أول الصيف، حيث تحتفظ أشجار الدردار القديمة بذكريات الحقول المفتوحة، وعشب حلو للمشي. كانت المنازل في أبينغدون غروف تعود في الغالب إلى فترة الجص غير المميزة منذ خمسة وثلاثين عاماً، ومبنية بشكل معقول لذوي الدخول المتوسطة، تحول الكثير منها إلى "شقق مفروشة" واعتلت تلك الجملة الكثير من الأبواب.

استقر السيد راسل في تلك المنطقة، لأنه نظر إلى الأوساخ والبؤس في شارع جراب على أنها تقليد زائف عفا عليه الزمن، وفضل – كما قال– العيش في مكان يرى فيه أوراق الشجر الخضراء. الحقيقة أن غرفته تتمتع بإطلالة رائعة على صف طويل من الحدائق، وستار من أشجار الحور يحجب المباني الخلفية الكئيبة لشارع ويلتون خلال أشهر الصيف. عاش السيد راسل بشكل أساسي على الخبز والشاي، لأن موارده ضئيلة، ولكنه عندما يأتي دايسون يأتي لزيارته يرسل الخادمة لشراء ستة أكواب من البيرة، وكان دايسون حراً في تدخين ما يشاء من التبغ الذي يصنعه بنفسه. كان راسل صاحب المنزل تعيس الحظ لأن الشقة في الطابق الأرض شاغرة لعدة أشهر، وبطاقة "شقق مفروشة" تعلن عن فراغها، صعد دايسون الدرج في إحدى الأمسيات في أوائل الخريف، شعر أن شيئاً مفقوداً، نظر فرأى أن البطاقة اختفت، حيا راسل: "لقد قمت بتأجير الطابق الأول، أليس كذلك؟".

"نعم، استأجرتها سيدة منذ أسبوعين تقريباً".

قال دايسون بفضول: "حقاً! أهي فتاة شابة؟".

"أعتقد ذلك. إنها أرملة، وترتدي حجاباً سميكاً، قابلتها مرة أو مرتين على السلالم وفي الشارع، لكنني لا أرى وجهها".

وعندما وصلت البيرة واشتعلت أنابيب الغليون، قال دايسون: "وماذا كنت تفعل في الفترة السابقة؟ هل أصبح العمل أسهل؟".

قال الشاب راسل بحزن: "للأسف، الحياة عبارة عن مطهر؛ بل هي الجحيم، أكتب، وأختار كلماتي، وأزن وأوازن قوة كل مقطع لفظي، وأحسب أدق التأثيرات التي يمكن أن تحدثها اللغة، أمحو وأعيد الكتابة، وأقضي أمسية كاملة على صفحة واحدة من المخطوطة، وفي الصباح عندما أقرأ ما كتبته لا يوجد شيء يمكن فعله سوى رميها في سلة المهملات إذا كتبت عليها من الجانبين، أو وضعها في الدرج إذا كان الجانب الآخر نظيفاً. عندما أكتب عبارة تجسد تحولاً سعيداً في الفكر، أجدها عادية باهتة، وعندما يكون الأسلوب جيداً فإنه يخفي عجز الأفكار، أتعب في عملي، وكل سطر مكتمل يعني الكثير من الألم، أحسد حظ النجار في الشارع الجانبي الذي لديه حرفة يفهمها. وعندما يحصل على طلب للحصول على طاولة، فإنه لا يتلوى من الألم، وأنا سيء الحظ، لا أستطيع إنهاء كتاب واحد، أعتقد أني سأصاب بالجنون".

"يا صديقي العزيز، إنك تأخذ الأمر على محمل الجد، اسمح للحبر بالتدفق بسهولة أكبر. وقبل كل شيء عليك أن تكون مقتنعاً عندما تجلس للكتابة بأنك فنان، وأن كل ما تكتبه تحفة فنية. أنفترض أن الأفكار خذلتك، قل كما سمعت أحد أروع فناننا رقة، يقول: "لا يهم، فالأفكار كلها موجودة في قاع علبة السجائر تلك". إنك تدخن التبغ، لكن التطبيق نفسه، أنت تحظى بلحظات سعيدة، وهذا هو تعويضك".

"ربما تكون على حق. ولكن هذه اللحظات قليلة جداً، أعاني من عذاب الفكرة الرائعة التي تنفذ بشكل سيء، على سبيل

المثال، كنت سعيداً لمدة ساعتين قبل ليلتين، كنت مستلقياً ورأيت رؤى، وما أن جاء الصباح....".

"ما فكرتك؟".

"بدا لي هذا الشارع رائعاً، فكرت في "بلزاك" و"الكوميديا الإنسانية" و"زولا" و"عائلة روجون ماكار". خطرت لي فكرة أن أكتب عن تاريخ شارع، فكل منزل يشكل مجلداً، رأيت كل منزل، وقرأت بوضوح كما في الرسائل العلمية فسيولوجية وسيكيولوجية كل منزل. امتدت الطريق الصغيرة أمامي في شكلها الحقيقي، شارع أعرفه ومررت به مئات المرات، فيه عشرون منزلاً، مزدهراً وبائساً، وشجيرات ليلك أرجوانية مزهرة، وكان في الوقت نفسه رمزاً، طريقاً مخيّباً للآمال والآلام، بل محبطاً للنجاح والخيبات، ولسنوات من الوجود الرتيب بلا رضا أو سخط، للمآسي والأحزان الغامضة، رأيت على باب أحد المنازل بقعة حمراء من الدم، وخلف نافذة ظلين أسودين باهتين على الستارة، يتمايلان على حبال مشدودة، ظل رجل وامرأة معلقين في صالون عادي مضاء بالغاز. كانت هذه خيالاتي، وما لامس القلم الورقة ذبلت واختفت".

قال دايسون: "نعم، هذا كثير، إنك تعاني من الألم في سبيل تحويل الرؤية إلى واقع، صدقني إني أحسدك على اليوم الذي ستنظر فيه إلى رف كتبك وترى فيه عشرين كتاباً جيداً، سلسلة مكتملة، أرجوك أن تجعلها تُغلف بالجلد، وينقش عنوانها واسمك بحروف ذهبية، إنه الغلاف الحقيقي الوحيد لكتاب شجاع. عندما أنظر خلال نوافذ المكتبات الفاخرة وأرى تجليدات بلاد الشام والمغرب للكتب، وتناقضاتها اللطيفة بين الأحمر والأخضر، أقول لنفسي: "هذه ليست كتباً؛ لكن ديكوراً". الكتاب المغلف بهذه الطريقة كتاب حقيقي، ضع ذلك في اعتبارك، إنه أشبه بتمثال قوطي مزركش".

قال راسل: "للأسف، لا داعي لمناقشة التغليف، فالكتب لم تبدأ بعد".

استمر الحديث حتى الساعة الحادية عشرة ثم ودع دايسون صديقه، وعندما عبر سلم الطابق الأول انفتح الباب قليلاً وامتدت يدٌ تشير إليه، لم يكن دايسون ليتردد في تجربة المغامرة، وقال لنفسه بأن أفراد عائلته لم يردوا نداء سيدة، تقدم ليدخل فسمع صوتها خافتاً: "انزل إلى الطابق السفلي وافتح الباب ثم أغلقه بصوت مرتفع، وبعدها تعالَ إليّ، امشِ بهدوء حتى لا يشعر بك أحد".

فعل دايسون ما طلبته منه ولكنه خشي أن يقابل أحداً ما في طريق عودته، مشى كقطة، وشعر بأن لخطواته وقعاً يسمعه الناس، وشعر بالرضا عندما وصل وانفتح الباب على مصراعيه، دخل غرفة المعيشة، وانحنت السيدة له فشعر بالحرج: "أرجوك أن تجلس يا سيدي، ربما يكون هذا الكرسي هو الأفضل، فقد كان الكرسي المفضل لزوج صاحبة المنزل المتوفي، كنت سأطلب منك أن تدخن لكني أخشى أن تفضحني الرائحة، أعلم أن ما أقوم به غريب، لكنني رأيتك هذا المساء، ولا أعتقد أنك سترفض مساعدة امرأة تعيسة مثلي".

نظر السيد دايسون بخجل إلى الشابة، كانت ترتدي ملابس حداد سوداء، ولكن وجهها المبتسم، وعينيها العسليتين الساحرتين لم تناسبا الملابس الثقيلة والحجاب الباهت، وقال مجاملاً: "سيدتي، خدمتك غريزتك جيداً، لن أزعجك بمسألة الأعراف الاجتماعية؛ فالسيد الفاضل يعرف هذه الأمور. آمل أن أكون محظوظاً بخدمتك".

"أنت لطيف جداً، لكني علمت أن الأمر سيكون كذلك، يا سيدي، لقد مررت بتجارب حياتية كثيرة ونادراً ما أخطئ، ومع ذلك، فغالباً ما يكون الرجل حقيراً ويخطئ في الحكم، لذلك كنت أرتجف حتى عندما قررت اتخاذ هذه الخطوة، والتي قد تكون يائسة ومهلكة".

قال دايسون: "لا تخشي شيء معي، لقد تربيت على مبادئ الفروسية، وسعيت دائماً إلى تذكر تقاليدي العريقة. ثقي بي، واعتمدي على سريتي، ويمكنكِ الاعتماد على مساعدتي".

"سيدي، لن أضيع وقتك بمحادثات تافهة، فأنا متأكدة من أنه ثمين، اعلم أني هاربة وأختبئ هنا، وأضع نفسي تحت سلطتك، وإن وصفت ملامحي فقط فسأقع في يد عدوي الذي لا يرحم".

تساءل السيد دايسون كيف يمكن أن يحدث هذا، لكنه جدد وعده بالسرية، وقالت السيدة: "حسناً، الحماس الشرقي في أسلوبك رائع. في البداية أنا لست أرملة، وهذه الملابس فرضتها عليّ ظروف غريبة، أعتقد أن صديقك في المنزل السيد راسل، إنه خجول ومنعزل".

قال دايسون: "عفواً سيدتي، إنه ليس خجولاً لكنه واقعي؛ وربما كنتِ تعلمين أنه لا يمكن لأي راهب أن يحاكي العزلة الديرية التي يحب الروائي الواقعي أن يختبئ فيها، إنها طريقته لمراقبة الطبيعة البشرية".

قالت السيدة: "حسناً، رغم أن ما تقوله مثير للاهتمام إلا أنه ليس له صلة بأمرنا، يجب أن أخبرك بقصتي".

رواية المسحوق الأبيض

اسمي ليستر، ووالدي ضابط المدفعية المتميز اللواء وين ليستر، توفي قبل خمس سنوات بسبب مرض في الكبد أصيب به في المناخ القاتل في الهند، بعد عام عاد أخي الوحيد فرانسيس إلى المنزل بعد مسيرة جامعية استثنائية، واستقر في المنزل بعزم ناسك ليتقن ما يسمى بالأسطورة العظيمة للقانون. وكان لا يبالي بالتمتع، رغم أنه أكثر وسامة من معظم الرجال، وبإمكانه التحدث بمرح وذكاء، إلا أنه تجنب المجتمع وحبس نفسه في غرفة كبيرة أعلى المنزل ليجعل من نفسه محامياً.

في البداية كان يقرأ لعشر ساعات في اليوم، ينشغل بالكتب من أول ضوء يشرق حتى وقت متأخر من بعد الظهر، ثم يتناول غداءه معي بسرعة وكأنه يكره إهدار الوقت، ثم يخرج في نزهة قصيرة عندما يبدأ الظلام، اعتقدت أن هذا الاجتهاد القاسي قد يضره، حاولت إقناعه بالتخلي عن الكتب المدرسية المملة، لكن حماسه كان ينمو بدل أن يتضاءل، وزاد عدد ساعات القراءة، طلبت منه أن يخصص وقتاً للاسترخاء، كأن يخصص فترة ما بعد الظهر لقراءة الروايات، فضحك، وقال إنه يقرأ عن الإقطاعيات عندما يشعر بحاجة إلى التسلية، وسخر من فكرة المسارح، وشم الهواء النقي.

أعترف أنه كان يبدو بحالة جيدة، لكني كنت أعلم أن مثل هذا الجهد غير الطبيعي سينتقم منه فجأة، ولم أخطئ في ذلك، بدأت نظرة قلق تلوح في عينيه، وبدا عليه الخمول، واعترف في النهاية أنه يعاني من صحته، ويشعر بالدوار، ويستيقظ أحياناً في الليل بسبب الكوابيس، يرتجف من الخوف وجسمه يسيل بالعرق، وقال: "أنا أعتني بنفسي، لذا لا تقلقي عليّ، قضيت فترة بعد الظهر في الاسترخاء على الكرسي المريح الذي أعطيتني إياه، وأكتب هراءً على ورقة. لن أبالغ في عملي بعد ذلك، سأكون بخير في غضون أسبوع أو أسبوعين، تأكدي من ذلك".

رغم تأكيداته، فقد أدركت أنه لم يتحسن؛ بل ازداد وضعه سوءاً، كان يدخل غرفة المعيشة بوجه بائس ومكتئب، يحاول أن يبدو مبتهجاً، وكنت أرى أن هذه الأعراض تنذر بالسوء، وأخاف أحياناً من حركاته الناتجة عن عصبية، ونظراته التي لم أستطع تفسيرها، وبعد إصرار كبير أقنعته بالحصول على مشورة الطبية، فاستدعى طبيبنا القديم متردداً.

أثلج صدري الدكتور هابيردت بعد فحصه للمريض، حيث قال لي: "لا يوجد شيء خطير، إنه يقرأ كثيراً، ويأكل بسرعة ليعود إلى كتبه، والنتيجة الطبيعية لذلك هي بعض مشاكل في الهضم وفي الجهاز العصبي. لكني أعتقد آنسة ليستر، أننا سنكون قادرين على علاج ذلك، وكتبت وصفة طبية من شأنها أن تفعل العجائب، لذا ليس لديك سبب للقلق".

أصر أخي على أن يتم تحضير الوصفة من قبل صيدلاني في الحي، يعمل في متجر قديم وغريب، مختلف عن الصيدليات الحديثة التي تتخذ طريقة عرض مبهجة لسلعها، ولكن فرانسيس أحب الصيدلاني المسن، ويؤمن بنقاء أدويته. تم إرسال الدواء في الوقت المناسب، وكان أخي يتناوله بانتظام بعد الغداء والعشاء، كان عبارة عن مسحوق أبيض، يتم إذابة القليل منه في كوب من الماء البارد، قمت بتحريكه، وبدا أنه اختفى، تاركاً الماء صافياً وعديم اللون، في البداية بدا أن فرانسيس قد استفاد منه كثيراً، اختفى التعب من وجهه وأصبح أكثر بهجة مما كان عليه منذ ترك المدرسة، يتحدث بمرح عن تغيير نفسه، واعترف بأنه أضاع وقته، حيث قال ضاحكاً: "لقد كرست الكثير من الوقت للقانون، أعتقد أنكِ أنقذتني في الوقت المناسب، سأصبح مستشاراً عاماً، ولكن عليّ ألا أنسى الحياة، سنقضي إجازة معاً، سنذهب إلى باريس ونستمتع بوقتنا، ونتجنب المكتبة الوطنية".

أسعدني ذلك، وسألته: "متى سنذهب؟ يمكننا بعد غد إذا أردت".

"ربما يكون هذا مبكراً بعض الشيء، فأنا لا أعرف لندن بعد، وأعتقد أن على الرجل أن يعطي الأولوية لمتع بلاده، لكننا سنذهب خلال أسبوع أو أسبوعين، لذا حاولي تحسين لغتكِ الفرنسية، فأنا أعرف الفرنسية القانونية فقط، وأخشى أن هذا لن يكون كافياً".

انتهينا من تناول العشاء، وشرب دواءه بلذة كما لو كان نبيذاً من أفضل الأنواع، وسألته: "هل له طعم مميز؟".

ثم نهض من كرسيه وبدأ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وكأنه غير متأكد مما عليه أن يفعله بعد ذلك: "لا أعرف".

قلت: "هل نتناول القهوة في غرفة المعيشة؟ أم ترغب في التدخين؟".

"لا أعتقد، سأخرج لأتمشى قليلاً، يبدو المساء لطيفاً، انظري إلى الشفق، وكأن مدينة كبيرة تحترق، وهناك، بين المنازل المظلمة، يهطل المطر وكأنه دماء تنهمر، سأخرج وقد أعود بسرعة، ولكني سآخذ مفتاحي معي، لذلك تصبحين على خير عزيزتي إذا تأخرت في العودة ولم أركِ".

أغلق الباب خلفه ورأيته يمشي بخفة في الشارع، يلوح بعصاه، شعرت بالامتنان للدكتور هابردن على هذا التحسن، أعتقد أن أخي عاد إلى المنزل في ساعة متأخرة جداً، لكن مزاجه كان جيداً صباح اليوم التالي، وقال: "واصلت السير دون أن أفكر في المكان الذي أقصده، استمتعت بنقاء الهواء، ومنتعشاً بالازدحام، ثم قابلت صديقاً قديماً من أيام الجامعة يدعى أروفورد، قضينا وقتاً ممتعاً، شعرت بما يعنيه أن تكون شاباً، عرفت أن لي دماً يجري في عروقي مثل الرجال الآخرين، حددت موعداً مع أورفورد الليلة، سيكون هناك حفل صغير لنا في المطعم. سأستمتع لأسبوع أو أسبوعين، وسأسمع دقات الأجراس عند منتصف الليل، وبعد ذلك سننطلق في رحلتنا".

طرأ تحول كبير على شخصية أخي في أيام قليلة، وأصبح عاشقاً للمتعة، يجوب الشوارع ويجلس في المطاعم وينتقد الراقصات، وازداد وزنه، ولم يعد يتحدث عن باريس لأنه وجد فردوسه في لندن، شعرت بالسعادة، ولكني كنت أتساءل، فقد كان هناك شيء في مرحه يزعجني، لم أستطع أن أعرف السبب، وبدأ يتغير بعدها تدريجياً، لكنه لا زال يعود في ساعات الصباح الباردة، لم أعد أسمع شيئاً عن ملذاته. في أحد الأيام كنا نتناول الإفطار، نظرت فجأة في عينيه ورأيت غريباً أمامي، صرخت: "أوه، فرانسيس! فرانسيس، فرانسيس، ماذا فعلت؟".

قطعت أنيني الشديد الكلمات، وخرجت من الغرفة باكية رغم أني لا أعرف شيئاً، إلا أنني أعرف كل شيء، وبطريقة غريبة تذكرت المساء الأول الذي خرج فيه من المنزل ليختبر رجولته، وصورة الشفق الأحمر تتوهج أمامي، السحب كمدينة تحترق، والمطر كالدم، حاولت أن أقنع نفسي بأنه لم يحدث ضرر كبير، وفي مساء ذلك اليوم أثناء العشاء، قررت أن أضغط عليه وأجعله يحدد يوماً لعطلتنا في باريس، تناول دواءه وتحدثنا بسلاسة، وما أن أردت أن أبدأ في موضوعي اختفت الكلمات من ذهني، وتساءلت عن الثقل الجليدي الذي على قلبي، خنقني كأنه رعب لا يُوصف لغطاء تابوت يغلق على حي.

تناولنا العشاء بدون شموع، وتحولت الغرفة من الشفق إلى الظلام، الجدران والزوايا غير واضحة في الظل، نظرت إلى الشارع، أفكر فيما سأقوله لفرانسيس، توهجت السماء كما حدث في ذلك المساء الذي لا يُنسى، وفي الفجوة بين كتلتين مظلمتين منزلان وكأنهما في مشهد مهيب من اللهب، دوامات متوهجة من سحب ملتوية، أعماق مشتعلة، كتل رمادية مثل الدخان، مجد شرير يتلألأ في الأعلى بألسنة نار أكثر توهجاً، وفي الأسفل كما لو كانت هناك بركة عميقة من الدماء. نظرت إلى أخي، الكلمات تتشكل على شفتي، يده على الطاولة، بين الإبهام والسبابة في يده المغلقة بقعة صغيرة بحجم ستة بنسات، مثل لون الكدمة، ومع ذلك كنت أعلم أن ما رأيته لم يكن كدمة على الإطلاق. آه، لو كان بإمكان الجسد البشري أن يحترق باللهب، وكان اللهب أسود كالقار، لكان الأمر كذلك أمامي! دون تفكير أو صياغة كلمات، تشكل رعب رمادي داخلي، وفي زاوية من عقلي أدركت أنها علامة ظهرت بالحرق، للحظة أصبحت السماء مظلمة كمنتصف الليل، وعندما عاد الضوء إليّ كنت وحدي في الغرفة الصامتة، وبعدها سمعت أخي يخرج.

ارتديت قبعتي رغم تأخر الوقت وذهبت إلى الدكتور هابردن، وفي غرفة الفحص المضاءة بشكل خافت بواسطة شمعة أحضرها الطبيب معه، وصوت يكاد ينكسر رغم تصميمي، أخبرته بكل شيء بلسان متعلثم، من اليوم الذي بدأ فيه أخي في تناول الدواء حتى الشيء المروع الذي رأيته قبل نصف ساعة، وعندما انتهيت نظر إليّ الطبيب مشفقاً، وقال: "عزيزتي آنسة ليستر، من الواضح أنك قلقة بشأن أخيك، أنا متأكد من ذلك".

قلت: "بالتأكيد، كنت قلقة عليه كثيراً، خلال الأسبوع أو الأسبوعين الماضيين لم أشعر بالراحة".

"نعم بالطبع، أنت تعلمين كم هو غريب ذلك العقل".

"أفهم ما تقصده، ولكنني لم أُخدع. لقد رأيت ما قلته لك بعيني".

"نعم، بالطبع. لكن عينيك كانتا تحدقان في ذلك الغروب الغريب الذي شهدناه الليلة، هذا التفسير الوحيد، سترين الأمر بوضوح غداً، وتذكري أني مستعد دائماً لتقديم أيّة مساعدة في وسعي، لا تترددي في القدوم إليّ، أو إرسال من يستدعيني إذا كنتِ في حاجة إليّ".

غادرت المكان ولم أشعر بالراحة، أعاني من الارتباك والرعب والحزن، لا أعرف إلى أين أتجه، في اليوم التالي التقيت بأخي، نظرت إليه بسرعة، ولاحظت بقلب آلمني أن اليد اليمنى التي رأيت عليها بقعة النار السوداء، ملفوفة بمنديل، وسألته بجدية: "ما الذي حدث ليدك يا فرانسيس؟".

"لا شيء مهم، جرحت إصبعي البارحة ونزفت بشكل غريب، لذا قمت بتضميده".

"سأضمده لك بشكل جيد إذا أردت".

"لا، شكراً عزيزتي، هذا يفي بالغرض، لنفطر، فأنا جائع".

جلست أراقبه، بالكاد أكل وشرب، وكان يرمي اللحم للكلب عندما يظن أني انشغلت عنه، هناك نظرة في عينيه لم أرها من قبل، لم تكن نظرة بشرية، كنت متأكدة من أن الشيء المرعب الذي رأيته البارحة لم يكن وهماً أو خداعاً لحواس مضطربة، وذهبت إلى الطبيب بعد الإفطار، هز رأسه متحيراً ومتشككاً، وبدا وكأنه يفكر لبضع دقائق: "تقولين إنه ما زال يتناول الدواء؟ ولكن لماذا يستمر في تناول الدواء وهو في صحة جيدة؟ ما فهمته أن الأعراض التي كان يشكو منها قد اختفت، وبالمناسبة من أين حصل على الدواء؟ في صيدلية سايس؟ أنا لا أرسل أحداً إلى هناك أبداً؛ فالمسن أصبح مهملاً، أريدك أن تأتي معي إلى الصيدلية، أود أن أتحدث معه".

ذهبنا إلى المتجر. كان المسن سايس يعرف الدكتور هابردن، ومستعد لتقديم أيّة معلومات، قال الطبيب وهو يعطي المسن قصاصة ورق مكتوبة بقلم رصاص: "لقد كنت ترسل هذا إلى السيد ليستر منذ أسابيع، على حسب وصفتي الطبية".

ارتدى الصيدلي نظارته الكبيرة متردداً، رفع الورقة بيده المرتعشة، وقال: "أوه، نعم، لم يتبقَّ لديّ سوى القليل منه، إنه دواء غير منتشر، وكان متوفراً لديّ في المخزون، يجب أن أحصل على المزيد منه، إذا استمر السيد ليستر في تناوله".

قال هابردن: "من فضلك دعني ألقي نظرة على الدواء".

أعطاه الصيدلي زجاجة، ففتح السدادة وشم المحتويات، ونظر إلى المسن مستغرباً: "من أين حصلت على هذا؟ وما هو؟ يا سيد سايس، ليس هذا الدواء الذي وصفته. نعم، الملصق صحيح، لكنه ليس الدواء".

قال الصيدلي المسن خائفاً: "امتلكته منذ فترة طويلة، من بورباج بالطريقة المعتادة، لا يصفه الأطباء عادة، واحتفظت به على الرف لسنوات، ولم يتبقَّ منه إلا القليل".

قال هابردن: "من الأفضل أن تعطيه لي، أخشى أن يكون شيئاً خطأ قد حدث".

خرجنا من الصيدلية صامتين، الطبيب هابردن يحمل الزجاجة، وبعد أن مشينا لمسافة قصيرة ناديته، ونظر إليّ بتجهم، فقلت له: "أتمنى أن تخبرني بما كان يتناوله أخي مرتين في اليوم خلال الشهر الماضي".

"بكل صراحة أنا لا أعرف يا آنسة ليستر، سنتحدث عن الأمر عندما نصل إلى منزلي".

واصلنا السير بسرعة دون أن نتبادل أيّة كلمة، وصلنا، طلب مني أن أجلس، وبدأ يمشي جيئة وذهاباً في الغرفة، وجهه شاحب، لم يبدِ أيّة مخاوف، ثم قال: "حسناً، هذا غريب جداً، ومن حقك أن تقلقي، وأعترف لكِ أني لست مرتاحاً

أيضاً، لن نتحدث عما أخبرتني به الليلة الماضية وهذا الصباح، ولكن الحقيقة أن السيد ليستر كان يتناول عقاراً لا أعرفه، وليس هذا ما وصفته له، ويتعين علينا أن نفحص ما في الزجاجة".

فتح السدادة ونثر شيئاً من المسحوق الأبيض على ورقة، ونظر بفضول، قال: "إنه مثل كبريتات الكينين، إنه قشري، شمي رائحته".

قرّب الزجاجة مني وكانت الرائحة غريبة ومزعجة، كأنها بخار، ومثل مخدر قوي، وقال هابردن: "لديّ صديق كرس حياته للكيمياء، سأعتمد على فحصه، وكل ما أنصحك به ألا تفكري في الأمر أكثر من ذلك، انتظري النتيجة".

في ذلك المساء لم يخرج أخي بعد العشاء كالمعتاد، ضحك وقال: "استمتعت بما يكفي، ويجب أن أعود إلى حياتي السابقة، القانون سيكون استرخاءً جيداً بعد جرعة حادة من المتعة".

ابتسم وصعد إلى غرفته، كانت يده ما تزال ملفوفة بالضمادات، زارني الدكتور هابردن بعد بضعة أيام، وقال: "ليست لديّ أخبار، فتشامبرز خارج المدينة، لذا لا أعرف شيئاً أكثر منك، لكني أود رؤية السيد ليستر إذا كان موجوداً".

"إنه في غرفته، سأخبره أنك تريد رؤيته".

"لا داعي لذلك، سأصعد إليه ونتحدث قليلاً، يبدو أننا أعطينا الأمر أكبر من حجمه، لأن المسحوق الأبيض أفاده".

صعد الطبيب إلى الطابق العلوي، سمعت طرقه على الباب، ثم فُتح وأُغلق، انتظرت ساعة كاملة، ازداد الهدوء حدة مع اقتراب عقارب الساعة، ثم سمعت صوت باب يُغلق بقوة من الأعلى، الطبيب ينزل السلالم، عبرت خطواته الردهة، توقف عند الباب. تنفستُ بصعوبة، رأيت وجهي شاحباً في مرآة صغيرة، رأيت رعباً لا يمكن التعبير عنه في عيني الطبيب، ثبت نفسه بإمساك ظهر الكرسي بيد واحدة، ارتعشت شفته السفلى كشفة حصان، وابتلع ريقه وتلعثم بأصوات غير مفهومة قبل أن يتحدث، كان همساً جافاً: "رأيت الرجل، وجلست في حضرته لمدة ساعة. يا إلهي! مازلت حياً وفي كامل قواي العقلية، أنا الذي تعاملت مع الموت طوال حياتي، وعبثت ببقايا الجسد البشري، ولكن ليس هذا! أوه، ليس هذا".

وغطى وجهه بيديه وكأنه يريد أن يحجب رؤية شيء أمامه: "لا تطلبيني مرة أخرى يا آنسة ليستر، لا أستطيع أن أفعل شيئاً في هذا المنزل، وداعاً".

نزل من الدرج مترنحاً، يبدو كأنه شاخ عشرة سنوات في ساعة واحدة. لم يغادر أخي غرفته، ناداني بصوت بالكاد تعرفت عليه، قائلاً إنه مشغول جداً، ويرغب في أن تُترك وجباته عند الباب، فأصدرت الأمر للخدم، ومنذ ذلك اليوم وكأن المفهوم التعسفي الذي نسميه "الزمن" قد اختفى من قاموسي، عشت في رعب دائم، أمارس الأعمال الروتينية في المنزل بشكل آلي، ولا أتحدث إلا بالكلمات الضرورية للخدم. أخرج للتجول أحياناً لساعة أو ساعتين ثم أعود، ولكني طوال الوقت أتخيل روحي قلقة تقف أمام باب الغرفة المغلق تنتظره أن يفتح.

ذكرت أني نسيت الزمن، ولكني أعتقد أنه بعد أسبوعين من زيارة الدكتور هابردن عدت إلى المنزل بعد نزهتي أشعر بالانتعاش والراحة، كان الهواء حلواً ولطيفاً، وأشكال الأوراق الخضراء كالسحب تطفو في الساحة، وسحرتني رائحة الأزهار، توقفت على الرصيف منتظرة عبور عربة لأتجاوز الشارع إلى المنزل، نظرت إلى النوافذ، سمعت صوت مياه عميقة باردة تتدفق في أذني، ارتجفت من الخوف وسقط قلبي في وادٍ عميق، شعرت بخوف لا شكل له، مددت يدي بشكل أعمى عبر طيات الظلام، وأمسكت نفسي من السقوط في الوادي الأسود المظلم، الأحجار تحت قدمي تهتز وتتأرجح وتتمايل، شعرت وكأن الأشياء الصلبة تبتعد من تحتي. نظرت إلى نافذة أخي، سُحِبَت الستارة، وحدق شيء له حياة في العالم. لا أستطيع أن أقول إني رأيت وجهاً أو شكل أي شيء شبه إنساني، كان هناك شيء حي، عينان من اللهب المشتعل تحدقان بي، وكانتا وسط شيء بلا شكل مثل خوفي، كان رمزاً لكل الشرور والفساد البشع. أرتعش، أرتجف، كما لو كنت في قبضة الحمى، آلام لا توصف من الخوف والاشمئزاز، تجمدت لخمس دقائق، لم أستطع أن أتحرك، وبعدها

ركضت إلى غرفة أخي أطرق الباب وأصرخ: "فرانسيس، فرانسيس، بحق السماء أجبني، ما هو الشيء المرعب في غرفتك؟ اطرده، فرانسيس، أبعده عنك!".

سمعت صوت أقدام تتحرك ببطء وبشكل غريب، وصوت اختناق وغرغرة، وكأن أحدهم يكافح من أجل أن يتكلم، ثم خرج صوت مكسور ومختنق، وكلمات بالكاد استطعت فهمها: "لا يوجد شيء هنا، من فضلكِ لا تزعجيني، لست على ما يرام اليوم".

استدرت مذعورة وعاجزة، لم أستطع أن أفعل شيئاً، وتساءلت لماذا كذب عليّ فرانسيس، فقد رأيت ذلك الشيء خلف الزجاج بوضوح، رغم أنها كانت لمحة عابرة، جلست ساكنة، أعلم أن هناك شيئاً آخر؛ شيئاً رأيته في ومضة الرعب الأولى قبل أن تحدق فيّ تلك العيون المشتعلة. تذكرت، عندما سُحبت الستارة ورأيت الشيء الذي فتحها، لم تكن يداً، ولا أصابع أمسكت بالستارة، ولكنه جذع أسود دفعها جانباً، كانت الصورة المتعفنة والحركة الخرقاء ككف حيوان انطبعت في ذهني قبل أن تغمرني موجات الظلام الرهيبة وأنا أهوي سريعاً في الهاوية. كنت مذعورة، أفكر في الشيء المرعب الذي يعيش مع أخي، وقفت أمام بابه أصرخ، ولم يرد علي.

في تلك الليلة أخبرتني الخادمة أنها كانت تضع الطعام عند الباب لثلاثة أيام ولم يمس، وأنها طرقت الباب كثيراً ولم يرد عليها أحد، وسمعت عندها صوت أقدام تتحرك بغرابة، وكان ذلك ما سمعته، تمر الأيام ووجبات أخي لا تلمس، ولا يرد رغم طرقي للباب وصراخي، وأخبرني الخدم أنهم مرعوبون مثلي، وقالت الطاهية إنه عندما حبس أخي نفسه في غرفته لأول مرة، كانت تسمعه يخرج في الليل ويتجول في المنزل؛ وإن باب الردهة يفتح ويغلق، ولكنها لم تسمع أي صوت لعدة ليالٍ. جاءت لحظة الذروة أخيراً، وقت الغسق، كنت أجلس في الغرفة الكئيبة المظلمة، فسمعت صراخاً مروعاً، ثم علا صوت أقدام مذعورة تنزل السلم، انتظرت، دخلت الخادمة شاحبة ترتجف، وهمست: "يا آنسة هيلين، يا إلهي، ماذا حدث؟ انظري إلى يدي، آنستي؛ انظري إلى هذه اليد!".

جذبتها إلى النافذة، ورأيت بقعة سوداء رطبة على يدها، وقلت: "لم أفهم شيئاً، أرجوكِ اشرحي لي".

"كنت أنظف غرفتك، وأرتب أغطية السرير، وفجأة سقط شيء رطب على يدي، نظرت إلى الأعلى، وكان السقف أسود اللون ويقطر عليّ".

نظرت إليها بنظرة حادة، وعضضت شفتي وقلت: "تعالي معي، أحضري شمعة معك".

تقع غرفتي أسفل غرفة أخي، وعندما دخلت الغرفة شعرت برجفة، نظرت إلى السقف فرأيت بقعة سوداء مبللة وقطرات ندى سوداء تتقاطر منها، وبركة من سائل مروع يتسرب إلى أغطية السرير البيضاء، ركضت إلى الطابق العلوي وطرقت بصوت عالٍ: "يا فرانسيس، أخي العزيز، ماذا حدث لك؟".

استمعت لصوت اختناق، وضوضاء مثل ماء يغلي ويتدفق، ولكن لا شيء آخر، أنادي لم يأتِني رد، رغم ما قاله الدكتور هابردن ذهبت إليه، دموعي تنهمر، أخبرته بكل ما حدث، واستمع إلي بوجه قاسٍ؛ وقال: "من أجل والدك، سأذهب معكِ، رغم أني لا أستطيع فعل شيء".

خرجنا، الشوارع مظلمة، صامتة، ثقيلة بالحرارة والجفاف الذي استمر لأسابيع، وتحت المصابيح لمحت الشحوب على وجه الطبيب، وصلنا إلى المنزل، يده ترتجف. لم نتردد، صعدنا إلى الطابق العلوي. أمسكت بالمصباح، ونادى بصوت عالٍ حازم: "السيد ليستر، هل تسمعني؟ أنا أصر على رؤيتك، أجبني".

لم نسمع سوى صوت الاختناق الذي ذكرته: "ليستر، أنا في انتظارك. افتح الباب الآن وإلا سأحطمه"، ثم نادى بصوت يرن وتردد صداه من الجدران: ""السيد ليستر! للمرة الأخيرة أطلب منك أن تفتح الباب". لحظات من الصمت الثقيل: "نحن نضيع الوقت هنا، هلّا أحضرتِ لي مضرب بيسبول، أو شيئاً من هذا القبيل؟".

ركضت إلى غرفة صغيرة في الخلف تُحفظ فيها أشياء غريبة، وجدت أداة ثقيلة تشبه الفأس، اعتقدت أنها قد تخدم غرض الطبيب، وقال: "هذا سيفي بالغرض، أبلغك سيد ليستر أني سأقتحم غرفتك".

سمعت صوت الخشب يتكسر، وفجأة وكأن الباب قد انفجر، رأيناه مفتوحاً أمامنا، كنا مذهولين، تراجعنا لصراخ مخيف، لم يكن صوتاً بشرياً؛ بل كزئير وحش، شيء ما انطلق وضربنا في الظلام، قال الطبيب: "أمسكي المصباح".

دخلنا وألقينا نظرة سريعة في الغرفة، قال الدكتور هابردن وهو يلهث: "ها هو، انظر، في تلك الزاوية".

انتابني رعب شديد ما إن نظرت، وكأن سيخاً حديدياً ملتهباً غرس في قلبي، كانت على الأرض كتلة سوداء ليست صلبة ولا سائلة، متعفنة، تذوب وتتغير، تنفجر منها فقاعات زيتية كالقطران المغلي، في وسطها تحترق نقطتان كالعيون، ورأيت أطرافاً تتلوى وتتحرك، وشيئاً ارتفع ربما كان ذراعاً، تقدم الطبيب، رفع الفأس وضرب النقطتين المحترقتين، ثم غرس الفأس فيهما مراراً وتكراراً في نوبة غضب واشمئزاز، حتى هدأ الشيء. وبعد أسبوع أو أسبوعين تعافيت إلى حد ما من الصدمة الرهيبة، جاء الدكتور هابردن لرؤيتي، وقال: "بعت عيادتي، وسأبحر غداً في رحلة طويلة، لا أعرف ما إذا كنت سأعود إلى إنجلترا أم لا، على الأرجح سأشتري قطعة أرض صغيرة في كاليفورنيا وأستقر هناك لبقية حياتي، أحضرت لك هذا الظرف، يمكنكِ قراءة ما فيه عندما تشعرين أنكِ تستطيعين، به تقرير الدكتور تشامبرز حول ما قدمته له. وداعاً، آنسة ليستر".

فتحت المغلف ما إن غادر، لم أستطع الانتظار، بدأت أقرأ، وإذا سمحت لي، سأقرأ لك القصة المذهلة:

(عزيزي هابردن، لقد تأخرت بلا عذر في الإجابة على أسئلتك فيما يتعلق بالمادة البيضاء التي أرسلتها لي، بصراحة ترددت لبعض الوقت حول ما يجب عليّ فعله، لأن هناك تعصباً ومعياراً تقليديّاً في العلوم الفيزيائية كما في اللاهوت، وكنت أعرف أنني إذا أخبرتك بالحقيقة، سأسيء إلى التحيزات المتجذرة التي أؤمن بها، ولكني قررت أن أصارحك، وعليّ في البداية أن أقدم شرحاً قصيراً لك:

لقد عرفتني يا هابردن لسنوات عديدة كرجل علمي؛ وكثيراً ما تحدثنا عن مهنتنا، وناقشنا الهوة التي تبدو بلا أمل أمام الذين يعتقدون أنهم يستطيعون الوصول إلى الحقيقة بأيّة وسيلة كانت، باستثناء الطريق العلمي عبر التجربة والملاحظة في عالم الأشياء المادية. أتذكر الازدراء الذي تحدثت به معي عن رجال العلم الذين انغمسوا قليلاً في الغيب والماورائيات، وألمحوا بخوف إلى أن الحواس ربما لا تكون الحدود الأبدية التي لا يمكن اختراقها للوصول إلى المعرفة. ضحكنا كثيراً على حماقات "الغيبيات" في ذلك الوقت، والمتخفية تحت أسماء مختلفة، مثل: التنويم المغناطيسي، الروحانية، والتجسيد، والثيوصوفية، وكل هراء الدجالين وحيلهم البسيطة للشعوذة وللسحر في الشوارع الخلفية للندن. رغم ما قلته، فلابد أن أعترف لك بأني لست مادياً.

مضت سنوات عديدة منذ أن اقتنعت وأقنعت نفسي كمتشكك، بأن النظرية القديمة التي لا تقبل الجدل باطلة تماماً. آمل ألا يجرحك هذا الاعتراف كما كان ليفعل قبل عشرين عاماً، وأعتقد أنك لاحظت أن رجال العلم البحت بدؤوا يطرحون منذ فترة فرضيات لا تقل عن التعاليم السامية، وأظن أن أغلب الكيميائيين وعلماء الأحياء المعاصرين المشهورين لن يترددوا في تأييد مقولة الفيلسوف القديم: "كل شيء موجود في الغموض"، والتي تعني –على حد اعتقادي– أن كل فرع من فروع المعرفة البشرية إذا ما تتبعنا مصدره ومبادئه النهائية يختفي في الغموض. ولست بحاجة إلى أن أزعجك بسرد مفصل للخطوات المؤلمة التي قادتني إلى استنتاجاتي، فقد أوحت بعض التجارب البسيطة أثارت شكوكاً حول موقفي آنذاك، كما أوصلتني سلسلة من الأفكار التي نشأت في ظروف تافهة نسبياً إلى ما هو أبعد من ذلك.

تلاشى مفهومي القديم عن الكون، وأنا أقف في عالم يبدو لي غريباً ومرعباً مثل أمواج المحيط التي لا نهاية لها، أعلم الآن أن جدران الحس التي بدت لي منيعة للغاية، ليست حواجز أبدية لا يمكن اختراقها كما تخيلنا، بل هي حجب رقيقة للغاية تذوب أمام الباحث، وتتلاشى مثل ضباب الصباح المبكر حول الجداول. أعلم أنك لم تتبنَّ أبداً الموقف المادي المتطرف. ولم تحاول إثبات نفي ذلك، لأن حواسك المنطقية منعتك من هذا العبث، وأنا متأكد من أنك ستجد كل ما أقوله غريباً

ومنفراً لعاداتك الفكرية.

هابردن، ما أخبرك به هو الحقيقة، وباللغة المشتركة بيننا، الحقيقة العلمية الوحيدة المؤكدة بالتجربة، إن الكون أعظم وأكثر رهبة مما كنا نتخيل. الكون يا صديقي سر عظيم، قوة وطاقة صوفية غامضة لا توصف، محجوبة بهيئة خارجية من المادة، والإنسان، والشمس، والنجوم الأخرى، وزهرة العشب، والبلورة في أنبوب الاختبار، كل واحد منهم روحي ومادي وخاضع لعمل داخلي.

ربما تتساءل يا هابردن إلى أين يتجه كل هذا؛ ولكنني أعتقد أن القليل من التفكير سيجعل الأمر واضحاً، وستفهم أن وجهة النظر تتغير، وتتغير النظريّات الكاملة للأشياء، وما كنا نعتقد أنه لا يصدق وعبثي قد يكون ممكناً. باختصار، يجب أن ننظر إلى الأسطورة والمعتقد بعيون أخرى، وأن نكون مستعدين لقبول القصص التي أصبحت مجرد خرافات. في الواقع، هذا ليس طلباً كبيراً. بعد كل شيء، سيوافق العلم الحديث على ذلك، بطريقة منافقة. لا يجب أن تؤمن بالسحر، ولكن يمكنك أن تثق في التنويم المغناطيسي؛ الأشباح عفا عليها الزمن، ولكن هناك الكثير مما يمكن قوله عن نظرية التخاطر. إن إعطاء الخرافة اسماً يونانياً والإيمان بها يجب أن يكون مثلاً تقريبياً. هذا تفسيري الشخصي.

هابردن، أرسلت لي قارورة محكمة الغلق ومختومة، تحتوي على كمية صغيرة من مسحوق أبيض، تم الحصول عليه من صيدلاني أعطاه أحد مرضاك، لست متفاجئاً أنك لم تتمكن من تحليل المسحوق، إنها مادة كانت معروفة للقليلين منذ مئات السنين، ولم أتخيل أبداً أن نجدها في صيدلية حديثة. وأتبنى صحة ما قاله الصيدلي، فربما ظلت المادة على رفوفه لمدة عشرين عاماً، أو لفترة أطول. هنا يبدأ ما نسميه بالصدفة والتزامن، فخلال هذه السنوات تعرض الملح في القارورة لتغيرات متكررة في درجة الحرارة، ربما تراوحت بين 40 درجة إلى 80 درجة. وحدث أن هذه التغيرات التي تتكرر عاماً بعد عام على فترات غير منتظمة، وبدرجات متفاوتة من الشدة والمدة، شكلت عملية معقدة وحساسة، لدرجة أني أشك فيما إذا كانت الأجهزة العلمية الحديثة الموجهة بأقصى دقة يمكنها الخروج بنفس النتيجة.

إن المسحوق الأبيض الذي أرسلته يختلف كلياً عن الدواء الذي وصفته، إنه المسحوق الذي يُحضَّر منه النبيذ الذي يتم تناوله في سبت الساحرات، لا بد أنك قرأت عن ذلك، وضحكت من القصص التي أرعبت أسلافنا: القطط السوداء، عصي المكنسة، والحكم الذي صدر بحق بقرة امرأة عجوز. ومنذ أن عرفت الحقيقة، وددت أن تُصدق هذه المهازل، لأنها تخفي الكثير مما ينبغي ألا يُعرف. ومع ذلك، إذا كنت مهتماً بقراءة الملحق الخاص بدراسة "باين نايت"، فستجد أن السبت الحقيقي كان شيئاً مختلفاً تماماً، رغم أن الكاتب امتنع تماماً عن نشر كل ما يعرفه. كانت أسرار السبت الحقيقي هي أسرار العصور البعيدة التي بقيت حتى العصور الوسطى، أسرار علم شرير كان موجوداً قبل وقت طويل من دخول الإنسان الآري إلى أوروبا. رجال ونساء تم إغواؤهم وهم بعيدون عن منازلهم بحجج واهية، فقد قابلتهم كائنات مؤهلة تماماً لتقمص دور الشياطين. أخذهم مرشدوهم إلى مكان مهجور ومنعزل، معروف للمبتدئين منذ زمن طويل وغير معروف للجميع. ربما كان كهفاً في تلة جرداء تجتاحها الرياح؛ أو مكاناً في عمق غابة كبيرة، ويتم الاحتفال بسبت الساحرات.

هناك، في أحلك ساعات الليل، يتم إعداد النبيذ، ويتم تقديم الشراب الشرير للمبتدئين، وكما أسماه مؤلف قديم "السر الجهنمي"، ويجد كل من شرب نفسه يرافق شخصية ساحرة وجذابة بشكل خارق للطبيعة وغير أرضي، تدعوه للانفصال للمشاركة في ملذات أكثر روعة وإثارة من أي حلم، إلى أن يكتمل الأمر بزواج السبت.

من الصعب الكتابة عن هذه الأشياء، خاصة وأن الشخصية التي تغوي بجمالها لا تكون هلوسة، بل هي الرجل نفسه، أمر فظيع لا يمكت التعبير عنه إلا بأنه قوة نبيذ سبت الساحرات. قليل من المسحوق الأبيض في كأس ماء تمزق الحياة، وتذيب الثالوث البشري، وتخرج الدودة التي لا تموت أبداً، تلك التي تكمن فينا جميعاً، تصبح ملموسة وشيء خارجي ترتدي ثوباً من اللحم. وفي منتصف الليل، يتكرر السقوط الأول ويُمثل، ويكرر الشيء المرعب المخفي في أسطورة شجرة الجنة من جديد، هذا هو زفاف السبت.

أفضل ألا أقول المزيد، فأنت تعلم يا هابردن كما أعلم أن أبسط قوانين الحياة لا يجوز انتهاكها دون عقاب، ولقد أعقب هذا الفعل الرهيب، الذي أدى إلى تدنيس أقدس مكان، انتقام رهيب، فما بدأ بالفساد انتهى أيضاً بالفساد).

وتحت ذلك كتب الدكتور هابردن:

(إن كل ما سبق صحيح وصادق للأسف، في ذلك الصباح عندما رأيت أخاكِ في الغرفة اعترف لي بكل شيء، أول ما جذب انتباهي اليد المضمدة، فأجبرته أن يظهرها لي، رغم أني طبيب خبرتي طَويلة إلا أن ما رأيته جعلني أشعر بالغثيان والاشمئزاز، والقصة التي رواها لي أكثر رعباً مما كنت أتصور، جعلتني أشك في الخير الأبدي الذي يسمح للطبيعة بتقديم مثل هذه الاحتمالات البشعة، ولو لم تكن قد رأيتِ النهاية بعينيك، لقلت لك: لا تصدقي ذلك. أعتقد أن كل ما لدي بضعة أسابيع لأعيشها، لكنكِ شابة، وقد تنسين كل هذا).

في غضون شهرين أو ثلاثة أشهر سمعت أن الدكتور هابردن توفي في البحر بعد وقت قصير من مغادرة السفينة إنجلترا".

توقفت الآنسة ليستر عن الكلام، ونظرت بحزن إلى دايسون، الذي لم يستطع كبح قلقه، تلعثم بعبارات تعبر عن اهتمامه العميق بقصتها، ثم قال بلباقة: "عذراً يا آنسة ليستر، إنكِ تمرين ببعض الصعوبات، ولطف منكِ أن تطلبي مني مساعدتك".

قالت: "آه، نسيت ذلك. مشكلتي الحالية تبدو تافهة مقارنة بما أخبرتك به، وبما أنك لطيف معي سأكمل، لن تصدق ذلك، لكن بعض أقاربي يشكون أني قتلت أخي، ودوافعهم دنيئة للغاية، وتفاجأت أني مُراقبة باستمرار، في المنزل وفي الخارج، فشعرت بالإهانة، ولم أتحمل ذلك، وقررت أن أهرب منهم، وكنت محظوظة بما يكفي لأنجح، فتنكرت بعدها بهذه الصورة وشعرت بالراحة، ولكني أعتقد أن المطارد تمكن من تعقبي، وبالأمس رأيت المحقق المكلف بمراقبة تحركاتي، وأنت يا سيدي يقظ وحاد البصر، وأسألك إن رأيت أحداً ما يتلصص بالجوار هذا المساء؟".

قال دايسون: "لا أعتقد، على الإطلاق، ربما يمكنك أن تعطيني وصفاً للمحقق".

"إنه شاب أسمر البشرة، ذو شارب داكن. ويرتدي نظارة كبيرة الحجم لإخفاء وجهه، لكنه لا يستطيع إخفاء سلوكه المضطرب، ونظراته السريعة العصبية التي يلقيها يميناً ويساراً".

الوصف أصاب دايسون بالتعاسة، يتوق إلى الخروج من المنزل، وقال ببرود: "معذرة آنسة ليستر، لا أستطيع مساعدتكِ".

قالت بحزن: "آه! أخشى أن أكون قد أسأت إليك بغير علم، أخبرني ماذا فعلت، وسأطلب منك أن تسامحني".

قال دايسون وهو يمسك بقبعته، وتحدث بصعوبة: "لم تفعلي شيئاً، ولكني لا أستطيع مساعدتكِ"، أضاف بسخرية: "قد يستطيع صديقي راسل مساعدتكِ".

فقالت: "شكراً لك، سأجرب ذلك".

وانفجرت ضاحكة، ارتبك دايسون، غادر المنزل، بعد فترة وجيزة، واستمتع لمسافة خمسة أميال، شوارع تتغير ببطء من الأسود إلى الرمادي، ومن الرمادي إلى ممرات متلألئة من المجد تشرق عليها الشمس. قابل سكارى ضالين، وقال في نفسه بأنه لا يمكن لأحد أن يقضي الليل بطريقة أكثر عبثية منه. وصل منزله، اتخذ قرارات بالإصلاح، أن يتخلى عن جميع أساليب الترفيه، وأن يشترك في مكتبة مودي ليحصل على روايات لطيفة غير مؤذية.

حادثة غريبة في كليركينويل

يسكن السيد دايسون منذ سنوات في غرفتين في شارع هادئ إلى حد ما في بلومزبري، حيث يراقب نبض الحياة دون أن يصم آذانه بالشائعات الكثيرة التي تدور حول الشرايين الرئيسية في لندن، كما عبر عن ذلك بغطرسة. ويشعر برضا غريب في نفسه من مئات الخطوط للحافلات التي تذهب إلى أحياء المدينة الأربعة من شارع توتنهام كورت المجاور. يحكي لأصدقائه عن الخط الرائع الذي يربط أقصى إيلينج والشوارع التي بعد وايت تشابل. ويتخلص تدريجياً من الأجزاء الأكثر بذخاً في غرفه والتي كانت في الأصل "شققاً مفروشة".

رغم أنه لن يجد هنا الألوان المتلألئة لغرفه القديمة في الشارع المجاور لستراند، إلا أن هناك شيئاً من الأناقة الشديدة في الأثاث الذي يلائم ذوقه. فالسجاد قديم جميل وباهت، نقوشه كانت أشبه بنسخ مطبوعة من فنان حقيقي، تبدو رائعة بهوامش بيضاء عريضة وإطارات سوداء، ولم يكن في غرفه خشب بلوط أسود مزيف. في الواقع، لم يكن هناك سوى القليل من الأثاث: طاولة بسيطة مربعة في أحد الأركان، ومقعد من القرن السابع عشر أمام الموقد، وكرسيان خشبيان، ورف كتب من طراز قديم.

لم يهتم دايسون بهذه الأشياء، مكانه في مكتبه، وهو قطعة قديمة غريبة مطلية بالورنيش، يجلس لساعات وظهره إلى الغرفة، منخرطاً في السعي اليائس وراء الأدب، أو كما كان يسمي مهنته: "مطاردة العبارة". كانت مجموعة الحمامات والأدراج الأنيقة مليئة بالمخطوطات ودفاتر الملاحظات والتجارب والجهود التي بذلها لسنوات عديدة، كما أن عقله كان مليئاً بأفكار متراكمة. كان دايسون يحب كل تفاصيل وتقنيات عمله، يلمح البعض أنه يخدع نفسه باسم الفنان، إلا أن تسليته غير ضارة، وما يمكن التحقق منه هو (أو الناشرون)، أنهم اختاروا الجزء الجيد من عدم إرهاق العالم بالمطبوعات.

في هذا المكان يحبس دايسون نفسه مع خيالاته، يجرب الكلمات، ويحاول، كما حاول صديقه المنعزل في بايزووتر التغلب على مشكلة الأسلوب التي لا تقهر تقريباً، ولكنه يعمل دائماً بثقة عالية، تختلف عن الاكتئاب المزمن للواقع، يجرب الخطط التي بدت له سحرية منذ ليلة مغامرته مع المستأجر الذكي في الطابق الأول في أبينجدون جروف. وضع القلم وأحس بالانتصار، تذكر أنه لم يرَ الشوارع لخمسة أيام. ورغم ما أنجزه إلا أن عقله ما زال يعمل، أبعد أوراقه وخرج يمشي. شعور البهجة جعله يرى في كل حجر على الطريق إمكانيات لتحفة فنية.

الوقت متأخر، ومساء الخريف يقترب من نهايته وسط حجب من الضباب والهواء الساكن، بدت الأصوات وحركة المرور الصاخبة، والأقدام المتواصلة كضوضاء المسرح، في الساحة تتساقط الأوراق بسرعة كمطر الصيف، الشارع يتوهج بأضواء محلات الجزارة والإضاءة الساطعة لبائع الخضار. كانت ليلة السبت، وسكان الأحياء الفقيرة يتجمعون، النساء بائسات باللون الأسود الباهت يتفحصن قطع اللحم الرخيصة، وآخرون يتلذذون بالملفوف، وهناك طلب نشط على البيرة الرخيصة. كان دايسون يتأمل ما حوله، لم يهتم بثمن البصل سواء كان غالياً أم رخيصاً، ولم يفرح لانخفاض سعر اللحم إلى بنسين للرطل. كان منغمساً في فوضى القصة التي يكتبها، ويزن بعناية نقاط الحبكة والبناء، ويتلذذ بتذكر هذه العبارة السعيدة وتلك، ويخشى الفشل هنا وهناك، ترك الزحام وأضواء الغاز وبدأ يلتمس شوارع أقل ازدحاماً. انعطف دون أن ينتبه نحو الشمال، مر بشارع قديم مهجور، علقت فيه إعلانات عن طوابق ومكاتب للإيجار، ولكن لا يزال هناك حوله شيء من أناقة وجمود عصر الشعر المستعار.

طريق عريضة، ورصيف عريض، وعلى كل جانب صف من المنازل بنوافذ طويلة ضيقة، الجدران من الطوب القديم. مشى دايسون بسرعة وهو يقرر إنهاء فصل من روايته بسرعة، كان في حالة إبداعية، ظهر فصل آخر في عقله، فكر في الظروف التي سيكتبها بمتعة كبيرة، كان سعيداً بالشوارع الهادئة، وتخيل حياً كاملاً يحول إلى مكتبة لدراساته. ثم انطلق نحو الشرق، ووجد نفسه في شبكة قذرة من المنازل الرمادية ذات الطابقين، ثم في الفراغ المهجور، والطوب، والطرق غير المعبدة خلف أسوار المصانع الضخمة المثقلة بنفايات الحي المهجور منخفض الإضاءة. انعطف، فظهر أمامه ما لم يكن يتوقعه، تلة

ارتفعت عن الأرض المستوية، صعودها الحاد تحدده مصابيح مضاءة، وبحماسة المستكشف تساءل دايسون، أين أوصلته مساراته الملتوية؟ عادت البشاعة مرة أخرى، الباني ضل طريقه في الظلام الدامس في أوائل العشرينيات، وابتكر فكرة الفيلات المزدوجة من الطوب الرمادي، شكلها كلاسيكي محدد بأشرطة من الجص. كان اسم الشارع غريباً، وقمة التل متوجة بقطعة غير منتظمة من العشب والأشجار الذابلة وسميت ساحة، وهناك صف من المساكن القذرة، تفاجأ بمنزل أنيق نظيف أمامه، كما لو كان منزل طبيب في بلدة ريفية صغيرة مظلمة.

شعر دايسون بالتعب، ففرح عندما رأى نوافذ حانة مضاءة، دخل بنية اختبار المشروب المقدم لسكان هذه المنطقة النائية، مثل: ليبيا وبامفيليا والأجزاء المحيطة ببلاد ما بين النهرين، الأحاديث المتنافرة جعلته يشعر وكأنه في برلمان عمال لندن، بحث عن المدخل، وجده منعزلاً، وسمي خاصاً، جلس على مقعد صغير وطلب البيرة، الكثير من الثرثرة في المقهى، بالإضافة إلى جدال بلا معنى بين العاطفة والغضب، وخطب من العصور الوسطى، كلمات كتبها تشوسر تُقال بحماس ومتعة، ضوضاء الأواني المرتعشة ونحاسيات تدق المنضدة المصنوعة من الزنك. كان دايسون يدخن غليونه بهدوء بين رشفات البيرة، دخل رجل الحانة وارتجف ما إن رأى دايسون، وكاد أن يهرب لولا أن النادل سأله عما يريد شربه.

ارتجفت يده عند تناول الكأس. تفحصه دايسون، صوته مكتوم يكاد لا يخرج من شفتيه، يرتدي قبعة ناعمة من اللباد تغطي عينيه، يرتجف، شعر دايسون بالأسف لتوتره وانزعاجه، ود دايسون لو يستفسر عنه، فدخل رجل الحانة ووضع ذراعه على كتف الشخص المرتبك، تمتم في أذنيه بصوت خافت ثم اختفى، عرفه دايسون، بيرتون الناعم والحليق، الكذاب الموهوب، تناساه، لأنه كان منغمساً في المشهد المؤسف والغريب أمامه، عندما لمس كتفه استدار الرجل البائس وكأنه يدور حول محور، وانكمش إلى الخلف بصرخة مؤسفة، وكأن حيواناً أخرس وقع في الفخ، هرب الدم من وجهه، وأصبح جلده رمادياً، وكأن ظل الموت مر في الهواء وسقط عليه، وسمع دايسون همسة خانقة: "السيد ديفيز! بحق الله، ارحمني يا سيد ديفيز. أقسم لك أني...".

وخفت صوته عندما تمتم له في أذنه، بدأ يعض شفتيه، يحاول أن يتماسك، يرتجف كأوراق شجر الحور، ثم خرج إلى الشارع يترنح وكأنه قد حكم عليه بالموت، وبعد دقيقة خطرت في ذهن دايسون أنه يعرف الرجل، إنه بلا شك الشاب الذي يرتدي النظارات والذي يبحث عنه العديد من الأشخاص الأذكياء، كان لا يضع نظاراته، ولكن الوجه الشاحب والشارب الداكن والنظرات الخجولة كافية لتحديد هويته.

أدرك دايسون أنه من خلال سلسلة من الصدف وجد نفسه بلا قصد في مؤامرة متشعبة، تتلوى كمسار ثعبان بغيض يجوب شوارع لندن الرئيسية والفرعية، بانت الحقيقة أمامه، أدرك أنه دون وعي أو انتباه منه مُنح امتياز رؤية ظلال أشكال مخفية، تطارد وتسرع، وتلتقط وتختفي عبر الستارة المشرقة للحياة العادية، بلا صوت أو صخب، وتثرثر بالخرافات والحكايات، وفي لحظة، أصبحت الثرثرة الصاخبة والبهجة الزائفة وكل الضجيج المبتذل في الحانة جزءاً من السحر، فقد تم تمثيل مشهد من هذه المسرحية الغامضة المرعبة أمام عينيه، ورأى إنساناً يتحول إلى اللون الرمادي من شدة الخوف، فتحت أبواب الجحيم على الجبن والرعب على بعد ذراع منه.

في خضم هذه التأملات اقترب الساقي منه، وحدق فيه وكأنه يشير إلى أنه استنفد حقه في الراحة، فاشترى دايسون المزيد من الوقت بطلب البيرة، وبينما كان يتأمل لمحة المأساة القصيرة، تذكر أنه في أول نوبة من الخوف أخرج الشاب ذو الشارب يده بسرعة من جيب معطفه الكبير، وسمع شيئاً يسقط على الأرض، تظاهر دايسون بأنه أسقط غليونه، وبدأ يتحسس ويبحث بأصابعه، لمس شيئاً، وجذبه إليه، وبينما كان يضعه في جيبه، رأى أنه دفتر ملاحظات صغير قديم الطراز، مجلد بجلد أخضر باهت بطريقة التغليف المغربية. شرب البيرة في رشفة واحدة وغادر مسروراً باكتشافه، وانشغل يخمن الأهمية المحتملة لاكتشافه، خشى أن يجد أوراقاً فارغة، أو حماقات متعبة في دفتر مراهنات، لكن الغلاف المغربي الباهت بدا وكأنه يعد بأشياء أفضل، ويشير إلى أسرار.

تمكن الخروج بصعوبة من الحي القذر الذي دخله بقلب مرح، خرج عند طريق غراي إن، وانطلق عبر شارع جيلفورد،

وأسرع إلى المنزل متلهفاً إلى شمعة مضاءة ووحدة، جلس دايسون أمام مكتبه، ووضع الدفتر الصغير أمامه، كان من الصعب عليه أن يفتح صفحاته ويتحدى الإحباط. ولكن في غمرة اليأس وضع إصبعه بين الصفحات بشكل عشوائي، وسعد برؤية مجموعة من الكتابة المتراصة بها هامش، وقعت عينه على كلمتين، وبرزت بعيداً عن الكتلة. قرأ دايسون: (تيبيريوس الذهبي).

واحمر وجهه من الحماس ولذة الصيد، وقلب الدفتر فوراً على الصفحة الأولى، وبدأ يقرأ باهتمام شديد.

تاريخ الشاب ذي النظارات

(من مسكن قذر ومظلم، يقع في أفقر أحياء كليركنويل، أدون هذه القصة عن حياة تتعرض للتهديد كل يوم، ولا يمكن أن تستمر، ففي كل يوم، بل وفي كل ساعة، أعلم جيداً أن أعدائي ينسجون شباكهم حولي، وبذلك حُكم عليّ بأن أكون سجيناً في غرفتي القذرة، أعلم أنه ما أن أخرج من هنا سأموت. هذه القصة إن وقعت في أيدٍ أمينة ستكون مفيدة لتحذير الشباب من المخاطر والمزالق التي ترافق أي انحراف عن طريق الاستقامة.

اسمي جوزيف والترز، عندما بلغت سن الرشد وجدت نفسي أمتلك دخلاً صغيراً ولكنه كافٍ، وقررت أن أكرس حياتي للعلم. لا أعني علم هذه الأيام، فلم تكن لديّ نية للارتباط برجال يقضون حياتهم في مهنة مهينة بشكل لا يوصف وهي "تحرير" الكلاسيكيات، وتلويث هوامش أجمل الكتب بتعليقات فارغة وغير ضرورية، وبذل قصارى جهدهم لإبراز نفورهم من كل ما هو جميل، إن تحول كنيسة إلى إسطبل أو مخبز هو مشهد مؤسف؛ ولكن الأكثر إثارة للشفقة هو تحفة فنية ملطخة بقلم معلق، وعلامته البشعة (قارن). اخترت مهنة العالِم المجيد بمعناها القديم، إذ كنت أتوق لاكتساب معرفة موسوعية، وأن أشيخ بين الكتب، وأستخلص الحلاوة العميقة من كل كتابة جديرة بالاهتمام، لم أكن ثرياً بما يكفي لتكون لي مكتبة، ولذلك اضطررت إلى الذهاب إلى قاعة القراءة بالمتحف البريطاني.

يا لها من قبة عظيمة مرتفعة تحجّ إليها العقول، ولكنّها مقبرة للآمال، وبيت للحزن الذي تفشل فيه الرغبات، يدخل إليها الرجال بقلوب مرتفعة وعقول حالمة، يرون في تلك الدرجات المرتفعة سلماً للشهرة، وفي ذلك الرواق الفخم بوابة المعرفة، ثمّ لا يجدون سوى الفراغ، وكل ما هو بلا جدوى! عندما تدوي الشوارع الطويلة يكون فيها الصمت، والشفق الأبدي، ورائحة الثقل، ويتدفق الدم رقيقاً وبارداً، ويحترق الدماغ بالعطش، تطارد الظلال بعضها البعض، وتتحارب الأشباح، في حرب بلا نصر. يا قبة، يا قبر الأحياء، في أروقتك لا يسمع صوت، وتهمس الأنفاس دائماً، تغمغم الآمال الميتة، وتصعد أرواح الرجال مثل العث نحو اللهب، وتسقط محترقة سوداء على أرضك، يا قبة بعيدة مرتفعة عظيمة.

ندمت على اليوم الذي جلست فيه لأول مرة على مكتب لأدرس، اعتدت على الجلوس هنا منذ عدة أشهر، عندما تعرفت على رجل هادئ ولطيف، تجاوز منتصف العمر تقريباً، غالباً ما يشغل المكتب الذي بجواري في غرفة القراءة، لم يتطلب الأمر سوى القليل لنتعارف، عرض مساعدة عابرة، وتلميحاً إلى البحث في الفهرس، والأدب العادي لرجلين اعتادا أن يجلسا بقرب بعضهما. هكذا تعرفت على الرجل الذي يطلق على نفسه الدكتور ليبسيوس. بدأت أنتظره وأفتقده عندما يغيب، ثم نشأت صداقة بيننا، وضع معرفته الهائلة تحت تصرفي، يدهشني بالطريقة التي يرسم بها مخططاً موجزاً لموضوع معين في بضع دقائق، وثقت به وسرعان ما أطلعته على طموحاتي. وقال: "كان ينبغي أن تكون ألمانياً، كنت هكذا في فترة الصبا، "سأعرف كل شيء"، إنها حيلة بالفعل. لكنها تعني "حياة من العمل بلا نهاية، ورغبة لن تتحقق في النهاية". يجب على الباحث أن يموت، وهو يقول: "أنا أعرف القليل جداً".

تدريجياً وبكلمات مثل هذه أفسد ليبسيوس عقلي، يمدح مسار العلم ويلمح في الوقت نفسه إلى أنه أمر ميؤوس منه، مثل البحث عن حجر الفلاسفة، واستمر باقتراحات ماكرة مصحوبة بخطب لا نهاية له، إلى أن نجح في تقويض كل مبادئي، واعتاد أن يقول: "إن أعظم العلوم، ومفتاح كل المعارف، هو علم وفن المتعة. ولعل رابليه أعظم علماء الموسوعات، وكما تعلم فقد كتب أعظم كتاب تمّ تأليفه وتصنيفه على الإطلاق. وماذا يعلم الناس في هذا الكتاب؟ متعة الحياة. ولا داعي لتذكيرك بالكلمات المحذوفة في أغلب الطبعات، والتي تمثل مفتاح كل أساطير رابليه، وكل ألغاز فلسفته العظيمة، "عش فرحاً"، هناك تجدون كل علمه، وعدّ أماكن المتعة فناً راقياً؛ بل أرقى الفنون؛ فن كل الفنون. كان رابليه يمتلك كل العلوم، ولَكنه كان يمتلك الحياة أيضاً. ولقد قطعنا شوطاً طويلاً منذ عصره. أعتقد أنك مستنير، فأنت لا تعتبر كل القواعد واللوائح التافهة التي وضعها مجتمع فاسد لمصلحته الأنانية كمراسيم ثابتة لا تتغير.

هذه العقائد التي بشر بها، والحجج الخبيثة، يبثها سطراً تلو الآخر، هنا قليلاً وهناك قليلاً، ونجح في جعلي رجلاً يحارب

النظام الاجتماعي كله. أتوق إلى فرصة لكسر السلاسل والعيش حياة حرة، وأن أكون حاكم نفسي ومقياسها، نظرت إلى الوجود بعيون وثنية، وكان ليبسيوس يفهم فن تحفيز الميول الطبيعية لشاب كان من قبل ناسكاً. عندما نظرت إلى القبة العظيمة، رأيتها تتوهج باللهب ولهيب مغرٍ مجهول لي، لعب خيالي بي ألف لعبة خدعة، وكانت الممنوعات والمحظورات تجذبني كما يجذب المغناطيس الحديد. في النهاية اتخذت قراري، طلبت من ليبسيوس أن يكون مرشدي.

أخبرني أن أغادر المتحف في موعدي المعتاد، الرابعة والنصف، وأن أسير ببطء على الرصيف الشمالي لشارع جريت راسل، وأنتظره عند زاوية الشارع حتى يحضر من يكلمني، وعليّ أن أطيع التعليمات الذي سيقولها الرجل الذي سيأتي إليّ. نفذت التعليمات، وقفت عند الزاوية أنظر حولي بقلق، وقلبي ينبض بسرعة، وأنفاسي تتقطع. شعرت أن الوقت قد طال، خشيت أن يكون مازحاً معي، إلى أن لمحت شخصاً في الرصيف المقابل لشارع توتنهام كورت ينظر إليّ باهتمام، فاقترب مني ورفع قبعته، طلب مني أن أتبعه، فعلت دون أن أتكلم، كنت أتساءل عن المكان الذي نذهب إليه، وماذا سيحدث.

وصلنا إلى منزل هادئ وجميل في شارع يقع شمال شارع أكسفورد، ودق من أوصلني الجرس، أدخلنا خادم إلى غرفة كبيرة هادئة في الطابق الأرضي. جلسنا صامتين، لاحظت الأثاث، كان بسيطاً ولكن غالياً، وهناك خزانات بلوط كبيرة، وخزانتا كتب غاية في الأناقة، وفي زاوية صندوق يعود للعصور الوسطى. بعد قليل دخل الدكتور ليبسيوس ورحب بي بأسلوبه المعتاد، وبعد بعض المحادثات العابرة غادر الشاب الذي أوصلني الغرفة. ثم دخل رجل مسن وتحدث مع ليبسيوس، أدركت مما سمعته أن صديقي كان تاجراً للتحف القديمة، تحدثا عن ختم واحتمالات المزيد من الاكتشافات، وبعدها انضم إلينا شخصان أو ثلاثة، وتجادلوا حول اكتشاف منهجي لآثار ما قبل العصور السلتية[7] في إنجلترا، كنت في قلب اجتماع أثري غير رسمي، وفي الساعة التاسعة غادر الأثريون، ونظرت إلى ليبسيوس بطريقة أظهرت ارتباكي، وطلبت تفسيراً منه، وقال: "الآن، سنصعد إلى الطابق العلوي".

نصعد السلالم وليبسيوس ينير الطريق بمصباح يدوي، سمعت صوت قفل مزعج وأقفال وقضبان تُغلق، سحب مرشدي باباً من قماش سميك ونزلنا في ممر، وبدأت أسمع أصواتاً غريبة وضحكات، ثم دفعني إلى باب آخر، وبدأت طقوس التبشير لي. لا أستطيع أن أكتب ما شهدته في تلك الليلة، لن أتحمل تذكر ما حدث في تلك الغرف السرية المغلقة بإحكام، ومغطاة بالستائر بما لا يسمح لأي ضوء أن يتسرب إلى الشارع الهادئ؛ أعطوني نبيذاً أحمر، أخبرتني امرأة أنه نبيذ الجرة الحمراء الذي صنعه أفالونيوس. وسألتني أخرى عن مدى إعجابي بنبيذ الفون، وسمعت عشرات الأسماء الرائعة، بينما كان هذا الشيء يغلي في عروقي، ويحرك شيئاً كان نائماً بداخلي منذ لحظة ولادتي. بدا الأمر وكأن وعيي هجرني؛ لم أعد كائناً مفكراً، بل أصبحت موضوعاً وذاتاً في نفس الوقت. شاركت في الرياضة المرعبة، وشاهدت أسرار البساتين والنوافير اليونانية، رأيت رقصات مترنحة، وسمعت الموسيقى تدعوني وأنا جالس بجانب رفيقتي، ومع ذلك كنت خارج كل ذلك، ورأيت دوري كمتفرج خامل. استيقظت في الصباح وكنت واحداً منهم، أقسمت أن أكون مخلصاً. في البداية أروني الجانب الجذاب للأمور. طُلب مني أن أستمتع ولا أهتم إلا بالمتعة، وأشار لي ليبسيوس إلى أن أشد المتع هي مشاهدة رعب الأشخاص المساكين الذين يتم خداعهم وجلبهم إلى المنزل الشرير من وقت لآخر. وبعدها أخبروني إلى ضرورة مشاركتهم فيما يقومون به، وهكذا وجدت نفسي مضطراً لأن أكون في دوري مُغوياً، وبذلك قدت الكثيرين إلى أعماق الهاوية.

ذات يوم استدعاني ليبسيوس إلى غرفته، وأخبرني أنه سيكلفني بمهمة صعبة. فتح أحد الأدراج وأعطاني ورقة مطبوعة على الآلة الكاتبة وطلب مني قراءتها. كانت الورقة بلا مكان أو تاريخ أو توقيع، وكانت على النحو التالي:

(سيتلقى السيد جيمس هيدلي، من وكيله في أرمينيا، في الثاني عشر من هذا الشهر، عملة ذهبية فريدة من نوعها، وهي عملة تيبيريوس. تحمل العملة على ظهرها صورة حيوان الفون، مع نقش "فيكتوريا". ويُعتقد أن هذه العملة المعدنية ذات قيمة هائلة. سيأتي السيد هيدلي إلى المدينة لإظهار العملة المعدنية لصديقه، الأستاذ ميميس، من شارع تشينيز، شارع أكسفورد، في تاريخ ما بين الثالث عشر والثامن عشر من هذا الشهر).

ضحك الدكتور ليبسيوس على وجهي المليء بالدهشة عندما وضعت الرسالة الغريبة، وقال: "ستكون لديك فرصة جيدة

لإظهار حسن نواياك، هذه ليست حالة عادية، فهي تتطلب إدارة عظيمة ولباقة لا حدود لها، أنا متأكد من أنني أتمنى لو كان لديّ مخلص يخدمني، لكننا سنرى ما يمكنك فعله".

سألته: "أليست هذه مزحة؟ كيف يمكنك أن تعرف أن عملة معدنية أرسلت من أرمينيا إلى السيد هيدلي؟ وكيف يمكن تحديد الفترة التي سيقرر فيها السيد هيدلي القدوم إلى المدينة؟ يبدو لي أن هذا مجرد تخمين".

أجاب: "عزيزي السيد والترز، نحن لا نتعامل مع التخمينات. ستشعر بالملل إذا تناولت كل هذه التفاصيل الصغيرة، التروس والعجلات -إذا جاز لي القول- التي تحرك الآلة، ألا تعتقد أنه من الممتع أن تجلس أمام المنزل وتتعجب، من أن تكون خلف الكواليس وتشاهد الآلية؟ من الأفضل أن ترتجف من الرعد من أن ترى الرجل الذي يدحرج قذيفة المدفع. ليس عليك أن تهتم بالكيفية والسبب، لديك دور تلعبه وسأعطيك التعليمات، ولكننا نعتمد على الطريقة التي يتم تنفيذ الأمر بها. لقد سمعت كثيراً من الشباب يزعمون أن الأسلوب هو كل شيء في الأدب، ويمكنني أن أؤكد لك أن نفس المبدأ ينطبق على مهنتنا الأكثر حساسية. وبالنسبة لنا هو كل شيء، ولهذا لدينا أصدقاء مثلك".

غادرت مضطرباً، تعمد الغموض في كل شيء، لم أعرف الدور الذي ينبغي أن ألعبه رغم مشاركتي في مشاهد الفجور المرعب والاحتفالات المروعة، إلا أنني لم أفقد بعد كل مشاعري الإنسانية، ارتعدت خوفاً من أن يطلب مني قتل السيد هيدلي.

بعد مرور أسبوع، أي في السادس عشر من الشهر، طلبني الدكتور ليبسيوس إلى غرفته، وقال: "إنها الليلة، أرجو أن تنتبه لما سأقوله يا سيد والترز، لأن الأمر خطر على حياتك، اتبع هذه التعليمات حرفياً، في حوالي الساعة السابعة والنصف من مساء اليوم، ستتجول بهدوء على طريق هامبستيد حتى تصل إلى شارع فينسنت، انعطف وسر على طول الطريق، وخذ المنعطف الثالث إلى يمينك، وهو شارع لامبرت تيراس. ثم اعبر الطريق واستمر على طول شارع هيرتفورد، إلى ميدان ليلينجتون. المنعطف الثاني يوصلك إلى ميدان يسمى شارع شين؛ احرص أن تكون عند زاوية هذا الشارع في الساعة الثامنة. ستسير على طوله، وعند المنعطف، حيث تفقد رؤية الساحة ستجد مسناً بلحية بيضاء وشارب، على الأرجح سيبصرخ على سائق سيارة أجرة لأنه أحضره إلى شارع شين بدلاً من شارع تشينيز، تقدم إليه بهدوء واعرض خدماتك؛ سيخبرك إلى أين يريد أن يذهب، وستكون مهذباً لدرجة أنك تعرض عليه أن تدله على الطريق. أستطيع أن أقول إن الأستاذ ميميس انتقل إلى شارع شينيز منذ شهر؛ وبالتالي فإن السيد هيدلي لم يزره هناك قط، وعلاوة على ذلك فهو قصير النظر للغاية، ولا يعرف سوى القليل عن تضاريس لندن. لقد عاش في الواقع حياة ناسك متعلم في أودلي هول. هل أحتاج إلى أن أقول المزيد لرجل بمثل ذكائك؟ ستأخذه إلى المنزل، سيقرع الجرس، وسيسمح له خادم بالدخول. بعد ذلك تنتهي مهمتك، وستقوم بها على أكمل وجه. ستترك السيد هيدلي عند الباب، وتواصل سيرك، وأتمنى أن أراك في اليوم التالي. لا أعتقد حقاً أن هناك أي شيء آخر يمكنني أن أخبرك به".

حرصت على تنفيذ التعليمات بدقة، كنت أمشي دون تفكير ولكن باضطراب، أشعر أني على وشك الوصول إلى نقطة حاسمة في حياتي، الضجيج وهمس الأرصفة المزدحمة كان بالنسبة لي مجرد عرض صامت، أتساءل عن المهمة وسبب اختياري لتأديتها والنتائج المحتملة، اقتربت من نقطة الانعطاف، أسأل نفسي إن كان الخطر يحيق بي، وشعرت بفكرة باردة تضربني بأني مشتبه به ومراقب، وكل عابر سبيل يلقي علي نظرة حسبته ضابط شرطة. الوقت يقترب، السماء مظلمة، ترددت، أقرر أن أتوقف وأتخلى عن ليبسيوس وأصدقائه إلى الأبد.

قررت أن أنسحب من المهمة، عندما أدركت فجأة أن الأمر برمته مزحة، وقصة مختلقة غير محتملة، فمن بإمكانه الحصول على معلومات حول العميل الأرمني؟ وبأيّة وسيلة عرف ليبسيوس اليوم والقطار الذي سيستقله السيد هيدلي؟ وكيف سيقنعه بركوب سيارة أجرة خاصة بين عشرات السيارات المنتظرة في بادينجتون؟ أدركت بأنها حكاية خيالية، ومضيت إلى الأمام بمرح، انعطفت إلى شارع فينسنت، وسلكت الطريق التي وضحها ليبسيوس. الشوارع التي ذكرها كلها صامتة وخانقة. حل الظلام، شعرت بالوحدة في الساحات والأزقة العفنة، الناس يمرون على فترات متباعدة، دخلت شارع شين،

ووجدته كما قال ليبسيوس، ممراً أكثر منه شارعاً، كان طريقاً جانبية على أحد جانبيها جدار منخفض وحدائق مهملة وخلفيات قاتمة لصف من المنازل، وعلى الجانب الآخر ساحة للأخشاب. انعطفت عند الزاوية ولم أتمكن من رؤية الساحة، ثم لدهشتي رأيت المشهد الذي أخبرني به. توقفت سيارة أجرة بجانب الرصيف، مسن يحمل حقيبة يد يسيء معاملة سائق التاكسي، سمعته يقول: "نعم، ولكنني متأكد من أنك قلت شارع شين، وهذا هو المكان الذي أحضرتك إليه".

وكان المسن غاضباً يهدد بالشرطة ورفع دعاوى قضائية، صدمت، قررت أن أواصل السير، وبدون أن ألاحظ سائق التاكسي، رفعت قبعتي بأدب للسيد هيدلي المسن، وقلت: "عفواً سيدي، هل هناك مشكلة؟ أعتقد أنك مسافر، ربما ارتكب سائق التاكسي خطأ، هل يمكنني توجيهك؟".

التفت المسن نحوي، ولاحظت أنه زأر وأظهر أسنانه مثل كلب سيء الطباع عندما تحدث: "أحضرني هذا الأحمق السكير إلى هنا، طلبت منه أن يوصلني إلى شارع شينيز، وأحضرني إلى هذا المكان الجهنمي، لن أدفع فلساً له، كنت أنوي إعطاءه مبلغاً كبيراً. سأستدعي الشرطة وأسلمه لهم".

عند هذا التهديد فُزِع سائق التاكسي، وبدأ ينظر حوله وكأنه يتأكد من عدم وجود شرطي بالقرب، انطلق وهو يتذمر، ابتسم السيد هيدلي بوحشية راضياً عن نفسه لأنه نجح في توفير الأجرة، وأعاد بنسا أو ستة بنسات إلى جيبه، "المبلغ الكبير" الذي خسره سائق التاكسي، قلت: "سيدي العزيز، أخشى أن هذه الحماقة أزعجتك كثيراً، الطريق طويلة إلى شارع تشينيز، وسوف تجد بعض الصعوبة في العثور على المكان ما لم تكن تعرف لندن جيداً".

أجاب: "لا أعرف الكثير عن هذا المكان، فأنا لا أزوره إلا في أمور مهمة، ولم أذهب إلى شارع شينيز من قبل".

"حقاً؟ سأكون سعيداً بإرشادك إلى الطريق. لقد ذهبت في نزهة، ولن يزعجني على الإطلاق أن أوصلك إلى وجهتك".

"أريد أن أذهب إلى الأستاذ ميميس في الرقم 15. هذا يزعجني، أنا قصير النظر، ولا أستطيع أن أتعرف على الأرقام المكتوبة على الأبواب".

"من هنا إذا سمحت".

وانطلقنا. لم أجد السيد هيدلي رجلاً لطيفاً، وكان يتذمر طوال الطريق، أخبرني باسمه، فحرصت على أن أقول له: "هل أنت المؤرخ الشهير؟".

ومن تلك اللحظة اضطررت إلى الاستماع إلى قصة مشاجراته المعقدة مع الناشرين، الذين عاملوه بشكل مشين –كما قال، كان الرجل فصلاً من فصول كتاب "انفعالات المؤلفين". أخبرني أنه كان على وشك تكوين ثروة لعدة شركات، لكنه اضطر إلى التخلي عن الفكرة لجحودهم. لم يكتفِ بذلك، فبالإضافة إلى هذه القصص القديمة عن الظلم، وإلى حادثة سائق التاكسي، لديه شكوى مؤلمة أخرى، عندما كان في القطار كان يبري قلم رصاص، ضغط سائق القطار على الفرامل فجأة وبقوة، فجرح القلم وجهه جرحاً صغيراً على شكل مثلث صغير على عظمة خده، وأراني إياه. أبدى امتعاضه من شركة السكك الحديدية، ووجه السباب إلى السائق، وتحدث عن المطالبة بتعويضات. لم يسكت طوال الطريق، ولم يلاحظ إلى أين كنا نتجه، وبسبب سوء سلوكه شعرت بالسعادة لأنني أخدعه.

رغم ذلك شعرت بشيء من الخوف، انعطفنا حيث كان ليبسيوس ينتظرنا، بدأت أتوقع أموراً قد تفاجئنا، مثل أن نلتقي بأحد أصدقاء هيدلي صدفة، أو أنه قد يميز الشارع –رغم أنه لا يعرف شارع شينيز، ويعاني من قصر النظر، ويعرف رقم المنزل، أو قد يستفسر من شرطي يمر، وهذا ما كان يدور في خلدي في كل خطوة على الرصيف، وكلما اقتربنا زاد خوفي، وكلما مر شخص أحسبه تهديداً محتملاً بالخطر، بذلت جهداً لأقول له بهدوء: "أعتقد بأنك ذكرت الرقم 15، إنه هناك، المنزل الثالث، سأودعك الآن لأني تأخرت وطريقي على الجانب الآخر من شارع توتنهام كورت".

همهم شاكراً، أدرت ظهري وغادرت مسرعاً، وبعدها التفت للخلف وشاهدت السيد هيدلي يقف على عتبة الباب، ثم

دخل، تنهدت مرتاحاً، ابتعدت عن الحي راغباً في الاستمتاع مع صحبة مبهجة. تجنبت زيارة ليبسيوس في اليوم التالي، كنت قلقاً، لم أكن أعرف ما حدث أو ما سيحدث، رأيت أنه من الأفضل أن أبقى في منزلي، وأصابني الفضول لمعرفة نهاية بعض الأحداث الغريبة التي لعبت فيها دوراً. في وقت متأخر من المساء، قررت أن أزور ليبسيوس لأعرف كيف انتهت الدراما الغريبة، أومأ برأسه عند دخولي، وأخبرني أنه بحاجة للتحدث معي لمدة خمس دقائق، دخلنا غرفته، وبدأ يمشي ذهاباً وإياباً، انتظرته ليتحدث، ثم قال: "عزيزي السيد والترز، أهنئك، أنجزت عملك بأسلوب دقيق وفني للغاية. سوف تصل إلى أبعد مما تتخيل".

ثم ذهب إلى مكتبه وضغط على زنبرك سري، فخرج منه درج، ووضع شيئاً على الطاولة. عملة ذهبية، فحصتها باهتمام، وقرأت النقش المحيط بصورة الإله الفون، وقلت مبتسماً: "فيكتوريا".

"كانت عملية رائعة، ونحن مدينون لك، وواجهت صعوبة كبيرة في إقناع السيد هيدلي وتهدئته رغم شدة تعامله وغضبه".

أمسكت العملة الذهبية، أتأمل تصميمها الرائع وتوهجها، وكأنها خرجت للتو من دار السك، وسألته: "وماذا حدث بعدها للسيد هيدلي؟".

ابتسم ليبسيوس وهز كتفيه، وقال: "وهل يهم ذلك حقاً؟ قد يكون في أي مكان، سؤالك فاجأني، أنت ذكي سيد والترز. فكر في الأمر جيداً، وأنا متأكد أنك لن تكرر السؤال".

قلت: "سيدي العزيز، لا أظن أنك تعاملني بإنصاف، أثنيت عليّ لمشاركتي في عملية الاستيلاء، وأود أن أعرف كيف انتهت المسألة. فمن خلال تعاملي البسيط مع السيد هيدلي، أعتقد أنك واجهت بعض الصعوبات معه".

لم يجبني، وعاد يمشي في الغرفة، يبدو أنه مستغرق في التفكير، ثم قال: "حسناً، أعتقد أن هناك شيئاً فيما تقوله، يا سيد والترز، انظر هنا من فضلك".

فتح باباً يؤدي إلى غرفة أخرى، أشار إلى صندوق ضخم غريب على شكل تابوت، يشبه تابوت المومياء الموجود في المتحف البريطاني، المومياء ملفوفة بأردية الموت، وكان وجهها مكشوفاً، نسيت السؤال الذي طرحته، وقلت: "هل ستقوم بإرسالها بعيداً؟"

"نعم، لقد تلقيت طلباً من أحد المتاحف المحلية، انظر عن كثب سيد والترز".

استغربت من طريقته، نظرت إلى المومياء بعد أن قرب المصباح منها، لحمها أسود اللون بسبب مرور القرون، رأيت على عظم الخد الأيمن ندبة مثلثة صغيرة، فانكشف لي سر المومياء، كنت أنظر إلى جثة الرجل الذي استدرجته ليدخل ذلك المنزل، لم أعرف ما الذي سأفعله، أمسكت العملة الملعونة، تحرقني كالجحيم، فهربت، كفارٍ من الوباء والموت، اندفعت إلى الشارع برعب أعمى، أركض دون أن أعرف إلى أين أتجه، وجدت العملة في قبضة يدي، فرميتها بعيداً، أركض في شوارع جانبية وطرق مظلمة، حتى وصلت إلى طريق مزدحمة فتوقفت. عدت إلى وعيي، أدركت أني قد أتعرض في أيّة لحظة للخطر، وأعرف ما الذي سيحدث لي إذا وقعت في يدي ليبسيوس، كنت كمن يمد إصبعه لإيقاف آلة.

علمتني مغامرتي الأخيرة مع السيد هيدلي المسكين أن ليبسيوس لديه عملاء في كل مكان، وتوقعت أنه إذا وقعت في يديه، فسوف يظل مخلصاً لمبدئه في "الأسلوب"، ويقتلني بتعذيب مروع ومبتكر، ركزت كل أفكاري على كيفية التغلب عليه وعلى عملائه، وأعرف ثلاثة منهم أثبتوا قدرتهم بتعقب أشخاص اختبؤوا واختفوا تماماً، كان خدم ليبسيوس رجلين وامرأة، وكانت المرأة الأكثر دهاءً وفتكاً. أعتقد أني أمتلك قدراً من الحيلة قد ينجيني. ومن هذه اللحظة بدأت منافساتي مع رجال ليبسيوس، كانوا يلاحقونني بشراسة في زوايا لندن، إلا أني بقيت مختبئاً. كنت أضحك عليهم وهم يحاولون استعادة أثري الذي فقدوه قبل دقائق، وبذلوا كل الحيل والإغراءات ليخرجوني من مخبئي، وأعلنت الصحف أن ما سرقته قد تم استرداده. وعُرضت عليّ أعمال يمكن أن أحقق من خلالها مكاسب كثيرة دون أدنى مخاطرة، وكنت أضحك عليهم.

بدأت أستهين بالمنظمة التي كنت أخشاها كثيراً، فغامرت بالخروج، وفعلت ذلك مرات عديدة، عرفت الرجلين المكلفين بالقبض عليّ، فبدأت أجرب لأعرف مدى مهارتي، تمكنت من الإفلات منهما بسهولة من مسافات قريبة، ثم قل حذري. كانت السيدة العميل الثالث من عملاء ليبسيوس تنسج شباكها، وفي ساعة نحس زرت صديقاً قديماً، رجل أدبي يدعى راسل، يعيش في شارع هادئ في بايزووتر. واكتشفت بعد فوات الأوان، قبل يوم أو يومين، أن المرأة كانت تشغل غرفة في نفس المنزل، وتم تعقبي وتتبع خطواتي، وأدركت بعد فوات الأوان أني ارتكبت خطأً فادحاً، وسيقبضون عليّ عاجلاً أم آجلاً، وسأجد نفسي في قبضة عدو لا يعرف الرحمة. إذا غادرت المنزل سألاقي مصيري، لا أجرؤ على تخيل الأمر كيف سيكون، خيالي الخصب يرسم لي صوراً مروعة للتعذيب، ربما أتحمله، ولكني سأموت وليبسيوس ينظر إليّ، مستمتع بآلامي.

أصبحت الساعات؛ بل الدقائق ثمينة جداً لي، أحياناً أتخيل العذاب الذي ينتظرني، أتساءل إن كان بإمكاني أن أبتكر خطة أو عملاً ذكياً محكماً يمكنني من تحرير نفسي من الشباك التي تحيط بي، أصبحت مثل الطالب في الأسطورة القديمة، الذي تخلت عنه القوة التي كانت تساعده. لا أعرف متى ستأتي اللحظة الحاسمة، هي حتمية، فقد حُكم عليّ، ولن يطول الأمر من الحكم إلى الإعدام. لا يمكنني أن أبقى سجين غرفتي أكثر من ذلك، سأخرج الليلة عندما تزدحم الشوارع، وسأقوم بآخر محاولة للهروب).

كان دايسون في حالة ذهول بعدما أغلق الدفتر الصغير، وفكر في سلسلة الحوادث الغريبة التي جعلته على اتصال بالمؤامرات المرتبطة بعملة "تيبيريوس" الذهبية. خبأ العملة في مكان آمن، وسرت في جسده قشعريرة بمجرد التفكير في العصابة قد تعرف مكانها، فلديهم مصادر معلومات غير عادية. تأخر الوقت، وضع المفكرة جانباً، آملاً أن يتمكن والترز المسكين من الهروب.

مغامرة المنزل المهجور

"قصة رائعة –كما تقول– سلسلة من الصدف والأحداث، أعترف أن تعبيراتك عندما أريتني عملة "تيبيريوس" الذهبية لأول مرة لم تكن مبالغاً فيها، ولكن هل تعتقد أن لوالترز مصيراً مخيفاً يخشاه؟".

"لا أعرف، فمن ذا الذي يجرؤ على التكهن بالأحداث حين ترتدي الحياة ثوب المصادفة وتلعب الدراما؟ ربما لم نصل إلى الفصل الأخير من القصة الغريبة. ولكننا نقترب من أطراف لندن، هناك فجوات في صفوف الطوب المتراصة، ومنظر الحقول الخضراء يظهر خلفها".

كان دايسون قد أقنع السيد فيليبس الذكي العبقري بمرافقته في إحدى تلك الجولات العشوائية التي يحبها، انطلقوا من قلب لندن، وشقوا طريقهم غرباً عبر الشوارع الحجرية، وخرجوا من ضاحية حمراء متطرفة، وصلوا إلى طريق هادئة تحيط بها أشجار الدردار. أشعة الشمس الصفراء الخريفية أضاءت الشوارع العارية، تتسلل عبر أغصان الأشجار، وتلمع على السجادة المتوهجة من الأوراق المتساقطة، وبرك المطر تتلألأ وهي تعكس بريق الضوء. سلام وراحة على كل المراعي الواسعة، قبل أن تبدأ الرياح العاتية، وفي البعيد تلوح لندن غامضة وواسعة وسط الضباب الخادع، نافذة بعيدة تلتقط أشعة الشمس وتشتعل كالنار، برج مرتفع يلمع، وفي الأسفل شوارع في الظل وسط صخب الحياة. سار دايسون وفيليبس صامتين تحت الأسوار العالية، صلوا إلى منعطف في الطريق ورؤوا بوابة قديمة متآكلة مفتوحة، ومنزل في نهاية ممر مغطى بالطحالب، قال ديسون: "أعتقد أنها أيامها الأخيرة، انظر كيف أصبحت أشجار الغار هزيلة سوداء وعارية، والمنزل مغطى بطلاء أصفر ومبقع بالرطوبة الخضراء. ولوحة الإعلانات التي تعلن أن المكان معروض للإيجار تصدعت وسقط نصفها".

قال فيليبس: "لندخل ونلقِ نظرة، لا أعتقد أن هناك أحداً بالجوار".

انحرفوا عن الطريق، وساروا ببطء نحو بقايا قديمة، منزل كبير متفرع إلى أجنحة منحنية في كلا الطرفين، وخلفه سلسلة من الأسقف والإضافات غير المنتظمة، ما يدل على أن هناك توسيعات قد تمت في المكان في أوقات مختلفة. الجناحان مسقوفان على شكل قبة، وعلى أحد الجانبين إسطبل، وبرج ساعة بجرس، وكتل داكنة من أشجار الأرز الكئيبة. وسط مظاهر التدهور كان عنصر واحد يتناقض مع المشهد، الشمس التي تغرب خلف أشجار الدردار، وكان الأفق الغربي والجنوبي في حالة اشتعال، وعلى النوافذ العليا للمنزل تنعكس النيران، وكأن الدم والنار اختلطا. أمام الواجهة الصفراء للمنزل الملطخة ببقع خضراء وسوداء متعفنة، امتد ما كان في السابق حديقة مهذبة، كانت نباتات القراص والأعشاب الضخمة وجميع أنواع الحشائش الخشنة تنمو في أماكن أحواض الزهور. وسقطت الجرار من أعمدتها على الممشى وتناثرت على الأرض، الفطريات نبتت وتكاثرت، رطبة ولزجة كقرحة متقيحة على الأرض. وفي وسط العشب الكثيف في الحديقة نافورة مهجورة؛ حافة الحوض تتفتت وتحولت إلى غبار بسبب التعفن، داخلها المياه راكدة، مع طبقة خضراء من الطحالب نبتت بدلاً من الزنابق، وأكل الصدأ جسد الترايتون البرونزي الذي كان يقف في الوسط، وكانت المحارة التي يحملها مكسورة.

قال دايسون: ""هنا يمكن للمرء أن يتأمل التحلل والموت، المسرح هنا مزين برموز الفناء، الظلام الكئيب لأشجار السرو والغسق يحيطنا، والرطوبة وجدت ملاذاً في كل شق، والهواء تغير ليتناسب مع المشهد. أعترف أن هذا المنزل المهجور يعيدنا للأخلاق مثل المقبرة، وأجد شيئاً رائعاً في ذلك الترايتون الوحيد المنعزل وسط بركته. إنه آخر الآلهة، لقد تركوه يتذكر صوت الماء والأيام الجميلة".

قال فيليبس: "أحب تأملاتك، ولكن أود أن أخبرك أن باب المنزل مفتوح".

"لندخل إذن".

دخلا، القاعة المتعفنة، نظروا إلى غرفة في أحد الجوانب، كانت كبيرة ممتدة، وورق الحائط متقشر من الجدران في شرائط

طويلة، ومغطى ببقع سوداء من الرطوبة، والطين القديم، والأرض الرطبة النتنة، الأرضية مغطاة بطبقة سميكة من الغبار والعفن، والسقف المزخرف تلاشى من ألوانه الزاهية والخيالات الخفيفة للكيوبيدات وهي تتحرك، وشوته بقع الرطوبة، فبدا وكأنه عمل آخر. لم تعد الكيوبيدات تلاحق بعضها بمرح، بأطراف لا تسعى للتقدم، وأيدٍ تحاول فقط محاكاة فعل الإمساك بالأزهار المتدلية؛ بل بدا وكأنها محاكاة ساخرة لعالم قديم ولتقاليده، وأصبحت رقص الحب رقصة للموت، البثور السوداء والقروح المتقيحة تنتفخ وتتجمع على الأطراف الجميلة، والوجوه المبتسمة تظهر علامات التحلل، والدماء السحرية للجنيات تغلي بجراثيم الأمراض القذرة مثل الخميرة، وديدان تلتهم قلب الوردة في وليمة.

بشكل غريب، تحت السقف المزخرف ومقابل الجدران المتعفنة، كرسيان قديمان، كأثاث وحيد في المكان الفارغ، كانا مرتفعي الظهر، بأذرع منحنية وأرجل ملتوية، مغطيين بورق ذهبي باهت، ووسائدهما ممزقة، صنعت من قماش داماسك، هناك رمزية، أدهشت دايسون. قال: "ماذا لدينا هنا؟ من جلس على هذين الكرسيين مرتدياً ساتان زهري، مع أكمام دانتيل وأبازيم ماسية، ويزين رفيقه بزهور الكونتيه؟ فيليبس، نحن في عصر آخر. سنجلس وندخن التبغ، إنّه لشعور رائع".

جلسا على الكراسي القديمة الغريبة، نظرا من خلال الزجاج الباهت والقذر إلى الحديقة المدمرة، والجرار المتساقطة، وترايتون المهجور. ثم توقف دايسون عن تقليد أسلوب القرن الثامن عشر، لم يعد يسحب أكماماً وهمية، أو يطرق على علبة سعوط شبحية، ثم قال: "إنه لخيال أحمق، ما زلت أعتقد أني أسمع صوتاً يشبه الأنين. اسمع، ها هو مرة أخرى! هل سمعته يا فيليبس؟".

"لا، أعتقد أن الأماكن القديمة تشبه أصداف الشاطئ، يتردد صداها باستمرار، فالعوارض الخشبية القديمة تتداعى وتئن، يمكنني أن أتخيل منزلاً كهذا يتردد صداه في الليل بالأصوات، أصوات المادة التي تتحول ببطء شديد وثبات إلى أشكال أخرى، صوت الدودة التي تقضم قلب شجرة البلوط، صوت طحن الحجر على الحجر، وصوت غزو الزمن".

جلسا صامتين، وأصبحا أكثر جدية في الهواء القديم العفن، هواء مئة عام مضت، قال فيليبس بعد فترة طويلة من الصمت: "لا أحب هذا المكان، وكأن هناك رائحة كريهة، مثل شيء يحترق".

"أنت محق، إنها رائحة شريرة، أتساءل ما هي! أصغِ! هل سمعت؟".

انقطع الصمت بصوت أجوف، صوت حزن وألم لا حدود لهما، ونظر الرجلان إلى بعضهما بخوف، والرعب وإحساس بأشياء مجهولة ظهر في عيونهما؛ قال دايسون "هيا، لنتأكد مما يحدث".

دخلا القاعة واستمعا، وقال فيليبس: "يبدو سخيفاً، ولكني أظن أن الرائحة هي رائحة لحم محترق".

صعدا السلم المجوف، الرائحة كريهة وكثيفة، تخنق الأنفاس، بخار مقزز كرائحة غرفة الموت، وجدا باباً مفتوحاً، دخلا الغرفة، وتشبثا ببعضهما بقوة، مرتعبين من المنظر الذي رؤوه. رجل عارٍ ملقى على الأرض، ذراعاه وساقاه متباعدتان، مقيد بأوتاد دُقت في الألواح الخشبية. الجسد ممزق ومشوه بأبشع الطرق، مليء بحروق وندوب من آثار حديد ملتهب، أمر مخجل للبشرية. في منتصف الجسد كانت نار تتقد من الجمر، اللحم احترق كله، الرجل ميت، ولكن دخان عذابه لا يزال يتصاعد بخاراً أسود.

قال دايسون: "الشاب ذو النظارات".

---

(1) Triton: مخلوق من الأساطير اليونانية والرومانية، له ذيل سمكة، وهو ابن بوسيدون شقيق زيوس، وزوجته إحدى بنات زيوس وتدعى أمفيتريت.

(2) Jeremy Taylor: قس إنجليزي، 1613 – 1667.

(3) نوع من الشوكيات.

(4) Gesta Romanorum: مجموعة لاتينية من الحكايات والقصص القصيرة، تم تجميعها في نهاية القرن الثالث عشر أو بداية القرن الرابع عشر.

Ichthyosaurus (5): من الزواحف المائية المنقرضة التي كانت تعيش في العصر الجوراسي.

Pterodactyl (6): من الزواحف الطائرة (ديناصور مجنح) في عصور ما قبل التاريخ، يصل طول جناحيه إلى خمسة أقدام.

(7) سكن السلتيون وسط أوروبا في القرن السادس قبل الميلاد، وتعود أقدم مكتشفاتهم في النمسا إلى حوالي عام 700 ق.م.